تمهيد

الحديث النبوى

فى

الدراسات اللسانية

أ.د/ أحمد عارف حجازى عبد العليم

دراسات لسانية
في
الحديث النبوى

الناشر
دار فرحة للنشر والتوزيع

إهداء

إلى من أبتهل إلى الله

أن يطهرهم ويعصمهم

الطاهر - ابتهال - عاصم

بسم الله الرحمن الرحيم

"وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى"

سورة النجم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الكريم .

لقد تركزت البحوث والدراسات اللغوية العربية ، قديما وحديثاً ، فى ثلاثة اتجاهات:

١- القرآن الكريم :

بوصفه كتاب العربية الأول ، وسر بقائها وحفظها ، على مر العصور التاريخية ، التى مرت بها ، دون تغيير أو تبديل . اللهم إلا فى بعض الأصوات أو التغيرات الدلالية أو التركيبية أو الصرفية التى تمثلت فى اللهجات العربية العامية الحديثة وبعض الكتابات الفصحى المعاصرة. وإن كان كثير من هذه التغييرات مستمداً من اللهجات العربية القديمة.

٢- الشعر العربى :

بوصفه ديوان العرب ومجمع علمهم ، وكافة استخداماتهم اللغوية ، سواء فى العصر الجاهلى أم العصور الإسلامية التالية له ، أم العصر الحديث . حيث تسابقت بحوث فى دراسة استخدام هذا الشاعر أو ذاك للجملة الاسمية أو الفعلية ، أو أسلوب الشرط ، أو التركيب الإضافى . وغيره من صور التراكيب اللغوية.

٣- كتب التراث :

وهى كتب الأدب النثرية وكتب النحو واللغة ، حيث تناولتها البحوث اللغوية القديمة بالشروح والتلخيصات ، على حين تناولتها البحوث الحديثة باستخراج منهج المؤلف ، أو استخدام الجمل عنده ، أو الشواهد النحوية ، أو القراءات القرآنية أو أى ظاهرة لغوية فيها .

ولا شك فى أن هذه البحوث قد أدت خدمات جليلة للغة العربية، ولكنها وقفت مترددة عند ذكر الحديث النبوى الشريف . فمنها ما رفض الاستشهاد به ودراسته لغوياً ، ومنها ما درسه بحذر على شروط اصطنعها فى ذلك . وقليلة جداً هى البحوث التى تناولت نواحى المفردات واستخدامها فى الحديث النبوى . هذا من جهة البحوث اللغوية القديمة .

أما البحوث اللغوية الحديثة فقد هربت من البحث فى الحديث الشريف ، ولم يجرؤ أحد من الباحثين المحدثين على الاقتراب منه . هذا على الرغم من أن الحديث الشريف قد قيل فى فترة الاحتجاج اللغوى ، وروى - سواء بلفظه أم بمعناه - على أيدى رجال عرب أو أكثرهم عرب فصحاء ، عاشوا فى عصور الاحتجاج أيضاً . بل قبلها فى عصر الصحابة والتابعين .

ولم أجد فيما تحت يدى من الكتب التى درست الحديث الشريف دراسة لغوية فى الوقت المعاصر إلا قليلاً جداً ، وقد أشرت إليها فى مكانها من هذا الكتاب .

كل هذا دفعنى إلى البحث فى الحديث النبوى الشريف ، من الناحية اللغوية فجاء هذا الكتاب الذى ، يعالج هذه الناحية ، فى سبعة فصول وتمهيد .

فى التمهيد تعرضت للدراسات التى تناولت الحديث النبوى قديماً وحديثاً مبيناً مناهجها وأصحابها كما ناقشت قضية الاستشهاد بالحديث النبوى فى الدراسة النحوية ، ومواقف أصحابها بين مؤيد ومعارض وموافق بشروط .

وفى الفصل الأول ناقشت فصاحة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تلك الفصاحة التى جاءت دون قراءة قبل الرسالة ، ودون كتابة بعامة .

ومع ذلك فقد جاءت لغة الحديث الشريف نطقاً صحيحة تامة ، ليس فيها لكنة أو لثغة أو فأفأة ، وغير ذلك من عيوب النطق ،بل اتسمت بالسرعة العادية فى الكلام والتكرار والوقف آخر الجمل وبعض الكلمات . وقد ظهر ذلك من خلال قراءة القرآن الكريم وتعليمه للصحابة ونطق الأحاديث الشريفة .

وفى الفصل الثانى تناولت دلالة اسم النبى (محمد) وكنيته (أبو القاسم) صلى الله عليه وسلم ، حيث اتسما بالتعظيم والقداسة. ولذلك لم يناده باسمه أحد ممن آمن به . بل كان يناديه باسمه مجرداً الأعراب والكفار والمشركون وأهل الكتاب ، أما كنيته فقد نهى عن تكنية غيره بها حرصاً منه على مكانته الاجتماعية الخاصة به ،كما بينت أن قليلاً جداً من الصحابة كان اسمهم محمداً فى حياة الرسول الكريم .

وفى الفصل الثالث ناقشت قضية تغيير الدلالة عن طريق تغيير بعض الأسماء ،وذلك بتوجيه من الرسول الكريم ؛ حيث كانت له نظرات لغوية غيّر من خلالها كثيراً من أسماء الصحابة الكرام وأولادهم، كما كان يختار لبعض أولادهم أسماء ذات دلالة مناسبة للدين الذى لم يزل آنذاك حديث عهد بهم .

وفى الفصل الرابع درست الازدواجية اللغوية فى الحديث النبوى تلك التى تمثلت فى نطقه صلى الله عليه وسلم لبعض لهجات القبائل العربية آنذاك ، والتعامل مع الأعراب ، كل بلهجته ، مثل الاستنطاء ولهجة أكلونى البراغيث والطمطمانية .كما بينت أن هذه اللهجات لها شواهد أخرى فى القرآن الكريم والشعر العربى فى عصور الاحتجاج.

وفى الفصل الخامس تعرضت للدلالة الحركية فى الحديث الشريف وذلك من خلال اتجاهين هما الإشارة والإعراض . وبينت أن اللغة لا تعتمد على النطق المسموع أو الكتابة المشاهدة فقط ، بل تعتمد على الحركات التى تصاحب النطق . وتكون لهذه الحركات دلالات معينة ، يفهمها من يشاهدها أو توصف له فى الكلام المكتوب ، وتختلف حسب السياق اللغوى.

وفى الفصل السادس تعرضت للدلالة الانفعالية من خلال الضحك والتبسم والغضب ،وبينت أن للضحك دلالات لغوية متعددة تفهم حسب المسرح اللغوى، ومن خلال تعبيرات الوجه أيضاً، أما الغضب فلم نجد له إلا دلالات مترادفة تدور فى حقل دلالى واحد.

وفى الفصل الأخير درست الدلالة السلبية أى الصمت ، وبينت أن للصمت دلالات متعددة تفهم من السياق نفسه؛ كالموافقة والمخالفة والحياء.

وقد استعنت كثيراً بصحيح البخارى (ت٢٥٥هـ) وشرحه لابن حجر العسقلانى (ت٨٥٢هـ) فى الاستشهاد بالأحاديث التى تخدم وجهة نظر البحث؛ وذلك لأن صحيح البخارى هو أصح الكتب بعد القرآن الكريم لما اشترطه صاحبه من شروط فيمن روى عنهم ،ولم ألجأ إلى غيره من كتب الحديث إلا فى حدود ضيقة جداً أثبتُّها فى مكانها من الكتاب .

كما استعنت بكتب علم اللغة النفسى لاستجلاء فهم حقيقة بعض الحركات والانفعالات ، استعنت بكتب الأصوليين فى البحث عن أنواع الدلالة، وبخاصة السلبية منها ؛إذ إن لهم جهداً كبيراً فى هذه الناحية .

وأرجو بذلك العمل أن أكون قد بينت بعض ما يجب أن يتجـــه إليـــه الدرس اللسانى الحديث من العناية بالحديث النبوى ، ذلك المصدر الثـــانى من مصادر التشريع الإسلامى بعد كتاب الله عز وجل .

فإن أك أصبت فالخير أرجو، وإن تكن الأخرى فحسبى أنى اجتهدت ولى من الأجر أقله ، والله حسبى لا إله إلا هـــو عليـــه توكلـــت وهـــو رب العرش العظيم .

أ.د/ أحمد عارف حجازى

دراسات لسانية
في
الحديث النبوى

دراسات لسانية في الحديث النبوي

المؤلف

أ.د/ أحمد عارف حجازى عبد العليم

***

الناشر

دار فرحة للنشر والتوزيع

٣٢٠ عمارات العرائس – شارع السودان- المهندسين

٢٨ شارع عدنان المالكى – المنيا

٠٢/٣٤٧٤٠١٠- ٠١٠/٧٠٠٠٦٢٤

٠١٠/١٦٦٨٣٩٩- ٠١٠/١٨٨٩٣٦٣

***

الإخراج الفنى

قسم التجهيزات بدار فرحة للنشر

***

تصميم الغلاف

م/ علاء حمدى

***

رقم الإيداع : ٢٣٤٣٨ / ٢٠٠٥

الترقيم الدولى : 0 - 64 - 6063 - 977

الطبعة الأولى – ٢٠٠٦ م

لم يحظ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بشئ كثير من الدراسات اللغوية التى تبرز جوانب الاستخدام اللغوى ، من حيث العلاقات السياقية والازدواج اللغوى والمسائل النحوية والصرفية ودلالة الحركة أو الإشارة فيه.وذلك عكس بقية العلوم العربية ، كالبلاغة والدراسات النقدية ، حيث استشهد على كثير من مسائلها بما ورد فى الحديث الشريف .

ومع ذلك فإننا نجد كثيراً من الكتب التى ألفها لغويو العربية القدماء تهتم بشرح ألفاظ الحديث وبيان استخدامها فى الشعر الجاهلى والإسلامى ،وهذه الكتب عرفت بكتب الغريب ،وقصد بها أهلها تفسير ما " وقع فى متون الأحاديث من الألفاظ الغامضة البعيدة عن الفهم لقلة استعمالها "([1])

وقد ألف فى هذ ا الموضوع كثير من العلماء منهم :

- أبو عبيدة بن المثنى (ت ٢١٠هـ)
- الأصمعى عبد الملك بن قريب (ت٢١٤ هـ)
- أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ)
- أبو محمد عبد الله بن قتيبة (ت ٢٧٦هـ)
- محمد بن يزيد المبرد (ت ٢٨٥هـ)
- أحمد بن يحيى ثعلب (ت ٢٩١هـ)
- ابن كيسان (ت ٣٢٠ هـ)
- أبو بكر بن الأنبارى (ت ٣٢٨هـ)
- أبو عمرو الزاهد (ت ٣٤٥هـ)
- ابن درستويه (ت ٣٤٧هـ)
- أبو سليمان الخطابى (ت ٣٨٨هـ)

---

[1] مقدمة ابن الصلاح ٢٧٤

- أبو عبيد الهروى (ت ٤٠١هـ)
- جار الله الزمخشرى (٥٣٨هـ)
- الحافظ المدينى (ت ٥٨١هـ)
- ابن الدهان (ت ٥٩٠هـ)
- ابن الأثير (ت ٦٠٦ هـ)
- ابن الحاجب (٦٤٦ هـ) (١)

وهناك نوع آخر من الكتب التى تناولت إعراب ما يشكل من ألفاظ الحديث الشريف وعرفت بكتب إعراب الحديث ،وهى قليلة جداً . بدأها أبو البقاء العكبرى (ت ٦١٦ هـ) بكتابه إعراب الحديث النبوى، وتلاه جمال الدين بن مالك (ت ٦٧٢هـ) ،ثم جلال الدين السيوطى (ت ٩١١هـ) .

هذا من حيث اللغة ،ألفاظاً غريبة وإعراباً لبعض كلمات الحديث أما من حيث النحو والتركيب وتطبيق قواعد اللغة التى وضعها النحاة فلها شأن آخر.

حيث وقف النحاة موقفاً مختلفاً من الحديث الشريف ، تجلى هذا الموقف فى عدم الاستشهاد بنصوص الحديث الشريف ، فى المسائل النحوية والصرفية ، وذلك منذ أن بدأ سيبويه (ت ١٨٠هـ) كتابه فى النحو والصرف والصوت (٢) ولعل نظرة فاحصة فى هذا الكتاب تدلنا على مدى ما لقيه الحديث الشريف من رفض الاستشهاد به .

---

(١) انظر النحاة والحديث النبوى ١٠٧ ، ١٠٨

(٢) ذلك لأن كتاب سيبويه لم يعالج قضايا النحو فقط ، بل الصرف أيضاً والصوت فى باب الإدغام .

فالشعر العربي من الجاهلية حتى آخر العصر الأموي ،وآيات القرآن الكريم ،قد أخذا نصيباً وافراً من الاستشهاد بهما ،أما الحديث الشريف فمواضع ذكره معدودة حيث نجد فيه أن :

- عدد الأبيات الشعرية ألف وخمسون بيتاً (١٠٥٠).
- عدد الآيات القرآنية أربعمائة وسبع عشرة آية (٤١٧).
- عدد الأحاديث النبوية ثمانية أحاديث (٨) ،منها واحد مكرر.

وقد سار علي نهج سيبويه في قلة الاستشهاد بالحديث كل من أتى بعده من النحاة واللغويين ،حتى الكوفيون منهم والبغداديون والأندلسيون والمصريون.

ذلك رغم أن الفترة بين نطق الحديث الشريف من فم رسول الله صلي الله عليه وسلم ،وكتابته قريبة ،حيث لم تتعد قرناً من الزمان ،علي يد محمد بن شهاب الزهري(ت١٢٤هـ) في خلافة عمر بن عبد العزيز(٩٩-١٠١هـ)[١] .ناهيك عن كتابته بشكل خاص في عهده صلي الله عليه وسلم، كما في صحيفة عمرو بن العاص ،وحديث كتابته لأبي شاة[٢].وفي هذه الفترة نفسها كانت تجمع أشعار العرب الجاهلية علي يد والمفضل الضبى(ت ١٦٨ هـ) خلف الأحمر(ت١٨٠ هـ)والأصمعي(ت٢١٤ هـ) ثم امتد التدوين فيهما- الشعر والحديث – طوال فترة التدوين في العصرين

---

(١) انظر المختصر في علم رجال الأثر٧٦،٧٧وعلوم الحديث ومصطلحه ٤٤،٤٥ والسنة قبل التدوين ٣٢٩،٣٣٠ وجامع بيان العلم١/٩٢.

(٢)انظر:صحيح البخاري(كتاب العلم)١/٣٦.

الأموي والعباسي الأول، حتى بلغ أشده علي يد البخاري(ت٢٥٦هـ)في صحيحه[1].

وقد دقق المحدثون في الحديث ،ولم يقبلوا كل ما روي ،بل درسوا الرجال الذين رووا هذه الأحاديث ،من حيث أخلاقهم وعلمهم وسيرهم،حتى يتأكدوا من صحة ما يتحملونه ويروونه عن النبي صلي الله عليه وسلم.وقد خصصت لذلك كتب عرفت باسم:(كتب الرجال)،أو(الجرح والتعديل)[2].ومعظمهم عرب أو موال عاشوا في عصور الفصاحة والاحتجاج ،ورغم ذلك كله رفض النحاة أن يستشهدوا بالحديث الشريف،علي مسائل النحو والصرف ،وراحوا يزعمون أن هناك أحاديث رويت بالنص ،وأخري رويت بالمعني.

فما روي بالنص هي الأحاديث التي وجهت العناية فيها إلي الألفاظ لبيان الفصاحة ،ككتابه صلي الله عليه وسلم إلي همدان ،وائل بن حجر،والأمثال النبوية .وهذا يستشهد به. وما روي بالمعنى هي الأحاديث التي وجهت العناية فيها إلي المعنى دون اللفظ ؛كأحاديث الفقه والعبادات والمعاملات .وهذا لا يستشهد به[3].

ورغم ذلك نجدهم قد انقسموا أقساماً ثلاثة ،في الاستشهاد بالحديث بين موافق ورافض وحذر.

أما الموافقون فهم:

- ابن خروف الأندلسي(ت٦٠٩ هـ).

---

(١) انظر:المراجع المذكورة في هامش.رقم ١ ص ١٩

(٢) انظر الجرح والتعديل ،المقدمة١/ب وعلوم الحديث٢٣٦ ولمحات في أصول الحديث٣٢٦

(٣) انظر :خزانة الأدب١/٩-١٤ وفصول في فقه اللغة العربية في ثلاثين عاماً٣/٣٠٤

- جمال الدين مالك(ت٦٧٢ هـ).
- رضي الدين الاستراباذي(ت٦٨٦ هـ)
- الدماميني(ت٨٢٧ هـ).

أما الرافضون فهم:

- ابن الضائع(ت٦٨٠ هـ).
- أبو حيان الأندلسي(ت٧٥٤هـ).
- جلال الدين السيوطي(ت٩١١ هـ).

وأما الواقفون موقفاً حذراً متوسطاً،فعلى رأسهم الشاطبي(ت٧٩٠هـ)،وهو صاحب تقسيم الحديث إلي ما روي بالنص وما روي بالمعني.

"ولعل السبب الحقيقي في بعد النحويين الأوائل عن استشهاد به هو إيثارهم الابتعاد عن موطن تزل فيه الأقدام،بعد شيوع الوضع في الحديث،في العصور الإسلامية الأولى؛ وكثرة اتهام بعض الناس بهذا الوضع"[1] لنصرة مذهب سياسي كالشيعة والخوارج ،أو لنصرة مذهب سياسي كالأمويين والعباسيين، أو لنصرة قومية ما كالعرب والفرس .

والحق أن كل المعاجم اللغوية العربية بداء من العين للخليل بن أحمد(ت١٧٠هـ)حتى ابن منظور المصري (ت٧١١ هـ)في لسان العرب،قد بوأت الحديث الشريف مكانة كبرى في الاستشهاد به علي ورود كلمة ما ،في استخدام ما ،بمعني ما ،يشاركها فيه غيرها من الكلمات مشاركة طفيفة ،بحيث يمكن وضع هذه الكلمات معاً تحت لفظ عام يجمعها فيما يعرف بمصطلح الحقول الدلالية مثل كلمات(أخضر – أحمر – أزرق

---

(١)فصول في فقه العربية٩٧

–أصفر –أبيض) حيث يجمعها لفظ عام هو(لون. Color وهو ما يسمي نظرية الحقول الدلالية Semantic fields[1].

ولعل أضخم المعاجم إيراداً للحديث الشريف تبعاً لضخامة المادة اللغوية فيه هو لسان العرب لابن منظور ،إذ إنه اعتمد علي كثير من المعاجم السابقة عليه؛ كتهذيب اللغة للأزهري(ت٣٧٠هـ) والمحكم لابن سيده(ت٤٥٨هـ)والصحاح للجوهري(ت٤٠٠هـ)والنهاية في غريب الحديث لابن الأثير (ت٦٠٦هـ) والتنبيه والإيضاح لابن بري(٢) .

ومع ذلك فليس هناك شرح لهذه الأحاديث ،أو تحليل لغوي لألفاظها بمثل ما حدث لألفاظ القرآن الكريم.

وقد انعكس هذا الإهمال اللغوي للحديث الشريف علي الدراسات اللغوية الحديثة فلم تقترب منه،وتركزت معظمها علي دراسة القرآن الكريم والشعر العربي قديمه وحديثه ،واستخراج جملهما وتصنيفها ،والمشتقات فيهما ،ودلالة بعضها فيهما .

R. P. .lehman ,Color in Usage:PP.73-79
W.L ehman:, Diachronic Sema ntics:P.6

(١) انظر " كتابنا الحقول الدلالية "

(٢)انظر لسان العرب- المقدمة١/خ،ذ وعلم الدلالة ٧٩

١

الفصل الأول

فصاحة الرسول صلى الله عليه وسلم

أقصد بالفصاحة فى الحديث الشريف أداء الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم اللغوى أداءً متميزاً؛ يحافظ فيه على مخارج الفونيمات ويوصل المعنى المراد إلى السامع توصيلاً جيداً ؛ لا يشوبه هامشية أو معان ثانوية؛ بحيث يتحدد للفظ دلالته المرادة منه،ومخاطبة السامع بأقل كلمات وأشمل معان .

وذلك هو ما عبر عنه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله (بعثت بجوامع الكلم) [1] وقوله (أعطيت مفاتيح الكلم) ([2]) .

وقد فسر الجاحظ (ت٢٥٥هـ) بحسه اللغوى هاتين الجملتين السابقتين ، فقال " هو الكلام الذى قل عدد حروفه ، وكثر عدد معانيه ،وجل عن الصنعة ،ونزه عن التكلف وكان – كما قال الله تبارك وتعالى : قل يا محمد (وما أنا من المتكلفين)([3]) فكيف وقد عاب التشديق ! وجانب أصحاب التعقيب ،واستعمل المبسوط فى موضع البسط والمقصور فى موقع القصر، وهجر الغريب الوحشى، ورغب عن الهجين السوقى، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ،ولم يتكلم إلا بكلام حف بالعصمة وشيد بالتأييد وبسر بالتوفيق ،وهو الكلام الذى ألقى الله عليه المحبة وغشاه بالقبول وجمع له

---

[1] صحيح البخارى (كتاب التعبير ٧٦/٨ وكتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ١٣٨/٨ وكتاب الجهاد ١٢/٤.

[2] المرجع نفسه (كتاب التعبير) ٧٢/٨.

[3] سورة ص ٨٦/٣٨ ومعناها لا أتكلف ولا أتخرص مالم أومر به انظر : تفسير القرطبى ٢٣٠/١٥ وانظر تفسير الآلوسى ٢٣٠/٢٣

بين المهابة والحلاوة ،وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام (1) ؛ مع استغنائه عن إعادته وقلة حاجة السمع إلى معاودته (2) .

ويستمر الجاحظ فى وصف الحديث الشريف وصفاً لغويا ويقارنه بغيره من الكلام البشرى ، فيقول " لم تسقط له كلمة، ولا زلت به قدم ،ولا بارت له حجة، ولم يقم له خصم ولا أفحمه خطيب .بل يبذ الخطب الطوال بالكلم القصار، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم ،ولا يحتج إلا بالصدق ، ولا يطلب الفلج إلا بالحق ، ولا يستعين بالخلابة ،ولا يستعمل المواربة ،ولا يهمز ويلمز ولا يبطئ ولا يعجل ولا يسهب ولا يحصر .

ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً. ولا أقصد نفعاً ولا أعدل وزناً، ولا أجمل مذهباً ، ولا أكرم مطلباً ، ولا أحسن موقعاً ،ولا أسهل مخرجاً ولا أفصح معنى ولا أبين فى فحوى ، من كلامه صلى الله عليه وسلم " (3) .

هذا النص يبين لنا مميزات الاستخدام اللغوى Performance فى الحديث الشريف من نواح عديدة؛ فهو قليل الكلمات كثير المعانى ، وليس فيه تكلف ولا تصنع. بل هو فطرى ناتج عن سليقة لغوية صحيحة مميزة وكفاءة لغوية Competence مليئة بالثروة اللغوية الهائلة؛ تخرج منها الكلمات المناسبة حسب المواقف والسياق، فيستعمل صلى الله عليه وسلم المبسوط فى موضع البسط والمقصور فى موضع القصر. كما يبتعد

---

(1) لعل الحافظ يقصد بالكلام هنا الكلمات Words وليس الكلام Speech فهناك فرق كبير بين المصطلحين .

(2) البيان والتبيين ١٧/٢ وانظر مقدمة ابن خلدون ٥٤٦-٥٥٦

(3) المرجع نفسه ١٨/٢

عن غريب الألفاظ ووحشيها ومهجورها ،ولذلك لم يحاجه أحد إلا غلبه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا ناقش أحداً إلا أقنعه .

وإذا أردنا شيئاً من التفصيل لكلام الجاحظ لوجدنا كثيراً من الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية التى تدل على فصاحته صلى الله عليه وسلم، ولنبدأ ببيئته التى ولد فيها وعاش حتى النبوة .

نعلم أن الله تعالى قد اختار رسوله الكريم بعلم تام عنه ، حيث إن " الله أعلم حيث يجعل رسالته " ([1]) . فجاء الرسول الكريم فى موطن الفصاحة والبيان والصحة اللغوية فى بنى هاشم من قبيلة قريش ([2]) ،والتى كانت ملتقى الشعراء والخطباء فى مواسم الحج والتجارة ، فى أسواق عكاظ ومجنة وذى المجاز ، وصاحبة اللغة المشتركة ـ بين قبائل شبه الجزيرة العربية آنذاك ([3]) .وقد استرضع صلى الله عليه وسلم فى بنى سعد بن بكر، وكان أخواله هم بنو زهرة ، وزوجه من بنى أسد وهجرته إلى بنى عمرو([4]).

وفى ذلك يتحدث كليب بن وائل الصحابى مع زينب ابنة أبى سلمى ، فيقول : " قلت لها : أرأيت النبى صلى الله عليه وسلم ، أكان من مضر؟ قالت : فممن كان إلا من مضر! من بنى النضر بن كنانة " ([5]) .كما تأول

([1]) سورة الأنعام ١٢٤/٦ وانظر : دلائل النبوة ١٢٩/١ وما بعدها

([2]) انظر نسبة الشريف فى الطبقات ٥٥/١-٥٩ وجمهرة أنساب العرب ١٥ ،١٦ ودلائل النبوة ١٢٩/١ وما بعدها .

([3]) انظر فصول فى فقه العربية ٧٨والصاحبى ٣٣ وإعجاز القرآن والبلاغة النبوية ٢٨٤-٣١٥.

([4]) انظر إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ٢٨٥

([5]) صحيح البخارى (كتاب المناقب) ١٥٤/١٢٣/٤

سعيد بن جبير قول الله تعالى" قل لا اسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى"([1]) .

بقوله : " إن النبى صلى الله وسلم لم يكن بطن من قريش إلا وله فيه قرابة" ([2]). كل ذلك هيأ لرسوله الكريم تلقى اللغة الصحيحة ، حيث يستمع لها فيفهمها ويقلدها ويعقلها ثم يتعامل بها مع الآخرين مخاطبة واستماعاً .وذلك كله كان فى المرحلة السابقة على نزول الوحى فى فترة الأربعين عاماً من عمره صلى الله عليه وسلم .

وهو ما تشير إليه الآية الكريمة (فقد لبثت فيكم عمرا) ([3]) .وفيه عرفوه لا يقرأ ولا يكتب وأحاطوا خبراً بأقواله وأفعاله ([4]) .

أما بعد نزول الوحى بالقرآن الكريم ، فقد جاءت مرحلة تالية من مراحل التمكن اللغوى فهما ونطقا ، حيث كان يأتي جبريل عليه السلام فيقرأ له – صلى الله عليه وسلم – القرآن الكريم ،ويعلمه كيفية النطق والقراءة المتأنية التى تحافظ على مخارج الأصوات وصفاتها وزمن النطق بها وعدم تأثير بعضها ببعض ، فتضيع بعض خصائص صوت أو أكثر، وهو ما يعرف بالمماثلة Assimelation أو المخالفة Dessimelation([5]) .

([1]) سورة الشورى ٢٣/٤٢

([2]) صحيح البخارى (كتاب المناقب)١٥٤/٤ وكتاب التفسير ٣٧/٦ وتفسير القرطبى ٢١/١٦ وتفسير الآلوسى ٣١/٣٠/٢٥ وتأويل مشكل القرآن ٤٥٠.

([3]) سورة يونس ١٦/١٠

([4]) انظر : تفسير القرطبى ٣٢١/٨ وتفسير الألوسى ٨٦/١١

([5]) انظر التطور اللغوى ٣٧/٢٢

فقد " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعالج من التنزيل شـدة وكان مما يحرك شفتيه ... فأنزل الله تعالى : (لا تحرك به لسانك لتعجـل به إن علينا جمعه وقرآنه) ([1]) قال (ابن عباس جمعه لك صـدرك وتقـرأه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ، قال : فاستمع له وأنصت . ثم إن علينا بيانه : ثم إن علينا أن تقرأه . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك إذا أتـاه جبريل استمع ،فإذا انطلق جبريل قرأ النبى صلى الله عليه وسلم كما قرأ"([2])

وذلك هو ما أمر به الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم فى قوله عز وجل (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه)([3]) .

وذلك حفاظاً على الاستماع أولاً ، ثم القراءة بعد الاستماع " إذ ربما يشغل اللفظ بكلمة عن سماع ما بعدها " ([4]) .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد من التعليم لكيفية نطق اللغـة نطقـاً سليماً واستخدمها استخداماً موافقاً لما يتعرض له صلى اله عليه وسلم من أسئلة واستفسارات من جمهور يسمع له أو يـتعلم منـه مـن الصـحابة والمنافقين وأهل الكتاب والكفار ، ومن هنا وجدنا أنه كان" جبريـل عليـه السلام يلقاه فى كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن " ([5]) .

وقد ظهرت تأثيرات هذا التعليم اللغوى بكافة صورة – نطقاً وإشارة وحركة وصمتاً وإبتسامة وغضباً – على الاستخدام اللغوى فـى الحـديث الشريف . حيث كان الرسول الكريم ينطق نطقاً لغوياً صحيحاً يظهـر كـل

([1]) سورة القيامة ٧٥/١٦-١٨

([2]) صحيح البخارى(كتب الإيمان) ١ /٤ التفسير ٧٦/٦/٧٧

([3]) سورة طه ٢٠/١١٤وانظر ضرورة الشعر ٦٤

([4]) تفسير الآلوسى ٢٦٨/١٦ وانظر تفسير القرطبى ٢٥٠/١١

([5]) المرجع نفسه (كتاب المناقب) ١٦٥/٤ ، ١٦٦وكتاب التفسير ١٠١/٦، ١٠٢

فونيم بخصائصه وصفاته ، مع الوقف بين الجمل ، والسكت بين بعض الكلمات لأداء المعنى المراد بدقة. يدل على ذلك ما روته " عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يحدث حديثاً لوعده العاد لأحصاه"[1] كلماته واضحة فى نطقها ، وليس هناك حذف لفونيم آخر كلمة، لتأثير فونيم آخر فى أول الكلمة المجاورة عليه – كما يحدث فى أى حديث يومى ، فى أى موقف .ولذلك لم نجد – فيما روى من أحاديث – أن أحد المستمعين له. قال : لم أفهم عنك أو أعد لى ، أو لم أسمع ، أو ماذا تقول! بل فهم عنه كل من سمع له وحادثه ،ولم يكن هذا التأنى والنطق السليم فى حديثه اليومى فقط ، بل كان فى نطق القرآن الكريم ، كما سبق أن علمه جبريل .وقد سئل " أنس كيف كانت قراءة النبى صلى الله عليه وسلم فقال كانت مداً ،ثم قرأ : بسم الله الرحمن الرحيم ، يمد ببسم الله ، ويمد بالرحمن، ويمد بـ الرحيم " [2].

وكان أحيانا يعيد ما يقرأه من القرآن ؛ ليسهل متابعته وحفظه ممن يسمع له " فعن عبد الله بن مغفل قال : رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يقرأ وهو على ناقته ... قراءة لينة ، يقرأ وهو يرجع" [3] .

ولم يقف هذا الاستخدام اللغوى الصحيح عند نطقه وحده صلى الله عليه وسلم، بل نقله إلى أصحابه ليعلمهم كيفية الاستخدام اللغوى الصحيح أيضاً ، وبخاصة فى نطق القرآن الكريم ، حيث كان يأمر بعض أصحابه أن يقرأوا عليه القرآن الكريم؛ ليستمع ويصحح .ومن ذلك أنه صلى الله عليه

---

(1) صحيح البخارى (كتاب المناقب) ١٦٨/٤ وانظر أمالى السهيلى ١٠٩

(2) المرجع نفسه (كتاب فضائل القرآن) ١١٢/٦ وانظر كتابنا الوقف والابتداء .

(3) المرجع نفسه (كتاب فضائل القرآن) ١١٢/٦.

وسلم قال لعروة بن مرة " اقرأ على فقلت : أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قـــال: فإنى أحب أن أسمعه من غيرى " [1]

وهو أيضاً يجلس مع الصحابة فيعلمهم نطق الكلام اليومى المستخدم فى الدعاء ،وفى ذلك يقول : " سعد بن أبى وقاص عن أبيه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا هؤلاء الكلمات ، كما تعلم الكتابة اللهم إنى أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن وأعوذ بك أن نرد إلـــى أرذل العمر ، وأعوذ بك من فتنة الدنيا وعذاب القبر " [2].

ويتجلى التوجيه الإلهى للاستخدام اللغوى الصحيح ، فـى تلـك الجلسات التى كانت شبه متصلة، للتعليم والتلقين و المدراسـة . ويـديرها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، ويحضرها من يشاء سواء للمعرفة أم التعلم أم السؤال أم التثبيت من شئ ما أم فض خصومة أو منازعة .وقـد يحدث فيها ما يحدث فى أية جلسة من غموض الفكر أو التشـويش علـى المتكلم ،و مقاطعته أو تكملة حديثه أو الانتقال من فكرة إلى أخرى ، فيُعَلِّم الله سبحانه وتعالى هؤلاء الجالسين كيفية الحـوار اللغـوى والاسـتخدام الصحيح للغة لتنقية هذه الجلسات مما قد يؤثر على وضوح السـياق ، أو يغير دلالة بعض الألفاظ ،وهذا هو ما نتبينه من حديث " أبى مليكة قـال : كاد الخيران أن يهلكا أبو بكر وعمر رضى الله عنهما ؛ رفعاً أصواتهما عند النبى صلى الله عليه وسلم ،حين قدم عليه ركب بنى تميم ، فأشار أحـدهما بالأقرع بن حابس أخى بنى مجاشع ، وأشار الآخر برجل آخـر ... فقـال

---

[1] صحيح البخارى (كتاب التفسير) ١٨٠/٥ وانظر تفسير القرطبى ١٩٧/٥، ١٩٨ وتفسير الآلوسى ٣٤/٥

[2] تدريب الراوى ١٣٢/٢

أبوبكر لعمر: ما أردت إلا خلافى، قال : ما أردت خلافك . فارتفعت أصواتهما فى ذلك فأنزل الله (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم) [1] الآية. فما كان عمر يُسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية،حتى يستفهمه... "[2]

ولاختلاف المواقف اللغوية التى كان يتعرض لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد أعطاه الله تعالى جوامع الكلم ، التى تعنى "أن الله يجمع الأمور الكثيرة التى كانت تكتب فى الكتب قبله فى الأمر الواحد والأمرين ، أو نحو ذلك " [3]. وهو ما " لم يسبقه إليه عربى ولا شاركه فيه أعجمى ، ولم يدع لأحد ولا ادعاه أحد مما صار مستعملاً ومثلاً سائراً؛ فمن ذلك قوله : يا خيل الله اركبى ،وقوله : مات حتف أنفه، وقوله : لا تنتطح فيه عنزان ، وقوله : الآن حمى الوطيس " [4] .

وقد استطاع الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، بهذه الحاسة اللغوية المؤيدة من الله تعالى ، أن يفهم كثيراً من الاستخدامات اللغوية فى عصره ويرجعها إلى أصلها ، فيحكم عليها بالصحة أو الخطأ ،ومن ذلك

---

[1] سورة الحجرات ٢/٤٩ ، والآية كاملة هى " يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون " .

[2] صحيح البخارى (كتاب التفسير) ٤٧،٤٦/٦ وكتاب الاعتصام بالكتاب ١٤٥/٨ والرجل الآخر الذى دعاه الصديق هو القعقاع بن معبد ، وانظر أيضاً تفسير القرطبى ٣٠٨/١٦ وتفسير الآلوسى ١٣٤/٢٥ ، ١٣٥ وكذلك الآية (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً) سورة النور ٦٣/٢٤ وانظر تفسير القرطبى ٣٢٢/١٢.

[3] المرجع نفسه (كتاب التعبير) ٧٦/٨ ويرى ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ) أن جوامع الكلم ليست الحديث الشريف ، بل هى القرآن الكريم . انظر تأويل مشكل القرآن ٥،٤ .

(٤) البيان والتبيين ١٥/٢ وانظر إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ٣١٦-٣٢٨ / ٣٣٠ والحيوان ٣٣٥/١.

رفضه الجمل المتكلفة . التى يعتنى صاحبها بتركيبها المسجوع؛ فتخـالف الطبع، ويظهر فيها أثر المشقة اللغوية فى أدائها، ومن ذلك أنه " قضى فى امرأتين من هذيل اقتتلتا فرمت إحداهما الأخرى بحجر فأصاب بطنها وهـى حامل فقتلت ولدها الذى فى بطنها .فاختصموا إلى النبى صـلى الله عليـه وسلم، فقضى أن دية ما فى بطنها غرة عبد أو أمه فقال ولى المرأة التـى غرمت : كيف أغرم يا رسول الله من لا شرب ولا أكل ولا نطق ولا استهل؟ فمثل ذلك بطل .فقال النبى صلى الله عليه وسلم : إنما هـذا مـن إخـوان الكهان " [1].

وله أيضاً بعض التعقيبات اللغوية على ما يسمعه من كلام العـرب وشعره ونثره ؛ فعندما سمع بعض الشعر الجيد قـال : " إن مـن الشـعر لحكمة " [2] . وعندما أتاه رجلان وخطبا أمامه قال رسول الله عليه وسـلم : إن من البيان لسحراً [3] .فهو- صلى الله عليه وسلم – يعلق تعليقات لغوية على بعض ما يسمعه من شعر أو نثر، وتبدو فى هذه التعليقـات الحاسـة اللغوية الدقيقة . ولا غرو فى ذلك فقد وصاه الله تعالى أن يتعامل مع الناس وبخاصة المنافقون تعاملاً لغوياً بليغاً حيث أمره الله تعالى بقوله عز وجل :

" وقل لهم فى أنفسهم قولاً بليغاً " [4] أى قولا " بليغاً مؤثراً واصـلاً إلى كنه المراد مطابقاً لما سبق له من المقصود " [5]

---

[1] صحيح البخارى (كتاب الطب) ٢٧/٧

[2] المرجع نفسه (كتاب الطب) ١٠٧/٧ وانظر الصاحبى ٤٦٦

[3] صحيح البخارى (كتاب النكاح) ١٣٧/٦ وكتاب الطب ٣٠/٧ وانظر الصاحبى ٤٦٦ .

[4] سورة النساء ٤/ ٦٣

[5] تفسير الآلوسى ٦٩/٥ وانظر تفسير القرطبى ٢٦٥/٥

ويعلق الجاحظ على هذه الآية فيقول : " ليس يريد بلاغة اللسان وإن كان اللسان لا يبلغ من القلوب حيث يريد إلا بالبلاغة " [1]

من هنا نرى سبب حرص موسى عليه السلام ، عندما سأل الله تعالى (واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى) [2] ،وذلك بسبب العجمة التى كانت فى فيه من جمرة النار التى أطفأها فى فيه وهو طفل؛ حتى يعلموا ما يقوله لهم ويفهموه [3] .ولعل هذا هو ما حدا بالإمام الشافعى (ت٢٠٤هـ) إلى أن يعزو هذه الفصاحة إلى توفيق الله عز وجل إياه [4] .

وهو ما جعل أبا حيان الأندلسى (ت٧٤٥هـ) يلخص الفصاحة كلها فى قوله : " ونعلم قطعاً من غير شك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أفصح العرب؛ فلم يتكلم إلا بأفصح اللغات وأحسن التراكيب وأشهرها وأجزلها . وإذا تكلم بلغة غير لغته فإنما يتكلم بذلك مع أهل تلك اللغة على طريق الإعجاز وتعليم الله ذلك له من غير معلم " [5].

من كل ما سبق يمكن أن نوافق مصطفى صادق الرافعى ، حين عزا فصاحة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبلاغته إلى سببين هما:-

١) إلهام من الله تعالى .

٢) نشأته فى أفصح القبائل وأعذبها بيانا.

---

[1] البيان والتبيين ٤٠٨/١

[2] سورة طه ٢٨/٢١/٢٠

[3] تفسير القرطبى ١٩٢/١١ ، ١٩٣ وانظر تفسير الألوسى ١٨٢/١٦-١٨٤.

[4] انظر الرسالة ٤٢/٤١

[5] خزانة الأدب ١٢/١١/١

٢

الفصل الثانى

دلالة اسم محمد وكنيته صلى الله عليه وسلم

لبعض الكلمات فى اللغة معـــان إيحائيـــة ؛[1]يفهمهـــا المـــتكلم أو المستمع عن طريق ما يتداعى إلى الذهن من تصورات مـــن خـــلال نغمـــة الكلمة أو بنيتها الصرفية ، أوتعبيرات وجه قائلها . ولعل أوضح ما تكـــون هذه المعانى الإيحائية حينما نستمع للأعلام كأسماء الأشخاص أو البلدان .
فاسم الشخص دال عليه فى شخصيته وعلمه وجسمه ومركزه الاجتمـــاعى والاقتصادى؛ مما يوحى بالتشاؤم من هذا الاسم أو التفاؤل أو السعادة حين سماعه أو الضيق أو الملل أو الخوف أو الحزن .
ومن البدهيات أن لكل مجتمع أعلاماً دالة على أفراده؛ بحيث تـــرتبط هـــذه الأسماء بالثقافة السائدة فيه والقيم الدينية والأخلاقية والعادات الاجتماعيـــة والتطلعات المستقبلية .
ففى العصر الجاهلى شاعت أسماء مثل :
(الحارث – زهير – طرفة – عبد القيس – عنترة – كلب – لبيد – نوفل)
وفى العصر الاسلامى وما تلاه من عصور أموية وعباسية شاعت أسماء مثل :-
(أحمد – جلال – جمال – حسين – عبد الله – على – محمد – محمود)
وفى العصر العثمانى التركى شاعت أسماء مثل :
(بهجت – ثروت – صفوت – عزت – عفت – نشأت)
وفى العصر الحديث شاعت أسماء مثل
(آية – ابتسام – ابتهال – معتز – منتصر – وجدى – وهبة)
من هذا المنطلق نرى أن الرسول الكريم – صلى الله عليه وســـلم – قد غير كثيراً من الألفاظ التى شاعت أسماء أعلام فـــى العصـــر الجـــاهلى؛

---

[1] انظر علم الدلالة ٣٦ :٤١

لتناسب العصر الإسلامى الجديد بثقافته الجديدة وقيمه ومثله، وهذه الأسماء كان بعضها ألقاباً ، وبعضها الآخر صفات ، على حين اختصاصه وحده بكنية (أبو القاسم) ،و لعل الرسول الكريم هو أول من سمى لفظ (القاسم) على ابن من أبنائه الذين ماتوا فى مكة صغارا "[1] .

ثم عرف بعد ذلك بكنية (أبو القاسم) صلى الله عليه وسلم " فعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : كان النبى صلى الله وسلم فى السوق فقال رجل : يا أبا القاسم ، فالتفت إليه النبى صلى الله عليه وسلم: فقال إنما دعوت هذا ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : سموا باسمى ولا تكتنوا بكنيتى "[2] .

نجد هنا أن لقب (أبو القاسم) لم يناديه أحد إلا الرسول الكريم، ولذلك صار يحمل المعنى الإيحائى والنفسى وهو إضفاء هالة القدسية عليه صلى الله عليه وسلم بما يحمله من علم ووحى وقيم خلقية يدعو إليها "بحيث لا يشاركه غيره فى هذه الكنية " فيما يفهم عنها من معان مرتبطة بالرسالة الإسلامية .

أما عدم نهيه صلى الله عليه وسلم عن التسميه باسمه فذلك راجع فيما يبدو لى إلى أنه لم يناد باسمه عليه السلام فى حياته، وبخاصة بعد البعثة إلا من قبل المشركين والكفار واليهود .

ولم يتكرر هذا النداء كثيرا ،لذلك فليس له معان ثانوية أو نفسية أو إيحابية في عقول المستمعين له أو المنادين به،بل بقيت دلالته معجمية

---

[1] انظر الطبقات الكبرى ١٣٣/١ وسيرة ابن هشام ١٧٤/١ وجمهرة أنساب العرب ١٦.

[2] صحيح البخارى (كتاب البيوع) ٢/٣ وكتاب المناقب ١٦٣/٤ وكتاب الأدب ١١٦/٧ ، ١١٧ ، ١١٨ ودلائل النبوة ١٢٨/١

فقط.بل إن الله تعالى لم يناد الرسول الكريم باسمه في القرآن الكريم قط،بل بتلك الصفات(النبي- الرسول).[1] وذكر اسمه في مقام التعظيم لا النداء.[2]

ولعدم وجود هذه المعاني لهذا الاسم(محمد)،لم ينه النبي صلى الله عليه وسلم عن التسمية به.يدل على ذلك ما روي "عن جابر بن عبد الله أنه قال " :"ولد لرجل منا من الأنصار غلام،فأراد أن يسميه محمداً... قال:حملته علي عنقي ،فأتيت به النبي صلى الله عليه وسلم ... قال : سموا باسمي ولا تكتنوا بكنيتي".(٣)

ولذلك فهم بعض الصحابة بحسهم اللغوي هذه المعاني في هذه الكنية (أبو القاسم)،فتحرّج بعضهم من إطلاقها علي غير النبي صلى الله عليه وسلم،ومن ذلك ما رواه " جابر عن عبد الله ،قال؛ ولد لرجل منا غلام فسماه القاسم،فقالت الأنصار:لا نكنيك أبا القاسم ولا ننعمك عيناً.فقال النبي صلى الله عليه وسلم:أحسنت الأنصار سموا باسمي ولا تكتنوا بكنيتي،فإنما أنا قاسم".[4]

---

[1] وذلك كما في قوله تعالي:"يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشراً ونذيرا) سورة الأحزاب٣٣/٤٥ وقوله سبحانه:"يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك"سورة المائدة٥/٦٧.

[2] انظر: تفسير القرطبي١٤/٢٠٠ حيث يقول القرطبي إن هذه الآية " تأنيس للنبي صلي الله عليه وسلم وللمؤمنين وتكريم لجميعهم". وانظر أيضا١٨/٨٣،٨٤ : في تفسير آية الصف(ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد)الصف٦١/٦.

[3] صحيح البخاري (كتاب فرض الخمس)٤/٤٩،٨٤.

[4] المرجع السابق(كتاب فرض الخمس)٤/٤٩ وكتاب الأدب٧/١١٦ ،١١٧،١١٨ والطبقات الكبري١/١٠٦ ،١٠٧.

وقد فطن إلي ذلك بحس لغوي دقيق ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ) فقال:إنه قد نهى عن "التسمية بذلك لئلا يسب أحد المسمى بذلك ،فأراد تعظيم الاسم لئلا يبتذل في ذلك ،وهو قصد حسن".[١]

أما قبل الإسلام فقد عرفت لاسم(محمد)بعض المعاني الإضافية ؛ من كون صاحبه رسولا،يبعث بالدين الخاتم ،ويدعو إلي مكارم الأخلاق وكذلك المعاني الإيحائية التي يضفيها الاسم على صاحبه ،من تعظيم وحب واحترام ومهابة ...إلخ.ولذلك طمع بعض العرب في هذه الدلالات فسموا بعض أبنائهم(محمداً).

وقد أحصاهم ابن سعد(ت٢٣٠هـ)،وهم:

١ – محمد بن خزاعي بن حزابة ، من بني سليم.

٢ – محمد بن سفيان بن مجاشع.

٣ – محمد بن الجشمي ،في بني سواءة.

٤ – محمد الأسدي.

٥ – محمد الفقيمي.[٢]

ونلاحظ أيضا أن النبي صلي الله عليه وسلم قد"قبض عن مائة ألف وأربعة عشر ألف(١١٤٠٠٠)من الصحابة ،ممن روي عنه وسمع منه".[٣] ومع ذلك نجد أسماء من ولد منهم في الإسلام ،تبتعد عن(أحمد – محمد – محمود – طه – يس).

---

[١]فتح الباري١٠/٥٧٩.

[٢]نظر:الطبقات الكبري١/١٦٩.

[٣]تدريب الراوى٢/٢٢٠.

وهي الأسماء الشهيرة للنبي صلى الله عليه وسلم .وما ذلك- فيما يبدو لي- إلا حرص منهم على قدسية هذه الأسماء ،وبقاء معانيها الثانوية والنفسية والإيحائية بعيداً عن لوك الألسنة إياها.

ولا نجد من سمى منهم محمداً إلا تسعة وعشرين رجلاً ،منهم اثنا عشر ولدوا في الإسلام. وثلاثة بأمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم،وأربعة عشر سموا قبل البعثة. [1]

وليس هناك اسم محمود إلا أربعة منهم ابن مسلمة ،الذي استشهد في غزوة خيبر. [2] ومحمود بن الربيع الذي توفي الرسول الكريم وهو ابن خمس سنين ولذلك يباهي فيقول: "عقلت من النبي صلى الله عليه وسلم مجة مجها في وجهي وأنا ابن خمس سنين ". [3]

وذهبوا إلي الأسماء التي تبتعد عن هذه المعاني ،بل يشترك فيها من شاء من الناس علي اختلافهم ،ومنها(عبد الله).وهنا نجد أن "سائر من يسمي عبد الله (من الصحابة) نحو مائتين وعشرين". [4]

ولذلك غير عمر بن الخطاب اسم(محمد)إلي عبد الرحمن ،حين "نظر إلي ابن عبد الحميد،وكان اسمه محمداً ،ورجل يقول له:فعل الله بك يا محمد.فأرسل إلي ابن زيد بن الخطاب فقال :لا أرى رسول الله صلي الله

---

[1] انظر:الاستيعاب ١٠/٤٦-٥٤. وهنا نرى خلافاً فى العدديين بين ابن سعد فى طبقاته ،وابن عبد البر. فالأول أحصاهم خمسة وحدد مولدهم فى الجاهلية ، والثانى أحصاهم أربعة عشر. ولعل مرد الخلاف إلى أن الخمسة هم الذين طمعوا فى الرسالة ،أما الباقون فلم تكن تسميتهم طمعاً فيها وولد منهم بعد الإسلام اثنا عشر.

[2] انظر:الطبقات الكبري٢/١٠٧ والاستيعاب١٠/٤٦-٥٤ والإصابة١٠/١٤..

[3] صحيح البخاري (كتاب العلم)١/٢٧ وفتح الباري١/١٧٢.

[4] تدريب الراوي١٠/٥٧٣.

عليه وسلم يسب بك، فسماه عبد الرحمن ،وأرسل إلى بنـــي طلحـــة ،وهـــم سبعة:ليغير أسماءهم..."[1]

---

[1] فتح الباري١٠/٥٧٣.

٣

الفصل الثالث

تغيير بعض الأسماء

لم يقف جهد رسول الله صلى الله عليه وسلم عند احتفاظه بكنيتـــه (أبو القاسم)،بل تعدى ذلك إلى تغيير بعض الأسماء التي لا تتناسب مع قـــيم الإسلام ،ومبادئه الجديدة على العرب آنذاك .وبالتـــالي تتغيــر دلالات هـــذه الأسماء ،ومن ذلك ما رواه " ابن المسيب عن أبيه،أن أباه جاء إلي النبـــي صلى الله عليه وسلم ،فقال : ما اسمك ؟ قال : حزن ،قال :أنت سهل.قال:لا أغير اسماً سمانيه أبي .قال ابن المسيبة: ،فما زالت الحزونة فينا بعد".[1]

نلاحظ هنا معرفة رسول الله صلى الله عليه وســـلم للدلالـــة التـــي تترسب في الذهن وترتبط بكلتا الكلمتين ،حزن وســـهل. فـــالحُزْن نقـــيض الفرح ،والحَزَن ما غلظ من الأرض وهو الخشن. (٢)

وهناك عام اسمه عام الحزن لما فيه من موت أبى طالب ، وخديجة رضـــى الله عنها ،وما صاحب ذلك من أذى الكفار للرسول صلى الله عليـــه وســـلم والمسلمين. [3]

والسهل نقيض الَحَزن ،وهو كل شـــئ أقـــرب إلـــي اللـــين وقلـــة الخشونة،والتسهيل هو التيسير والتسامح والتساهل. [4]

لذلك يأمره صلى الله عليه وسلم أن يغير اسم (حزن) إلى(سهل)لما في الاسم الثاني من دلالات اليسر والمرونة والسهولة.وينتقل من النقـــيض إلى النقيض،لما في الاسم الأول من الضيق والتشاؤم والسوء. [5]

---

[1] صحيح البخاري(كتاب الأدب)١١٧/٧.

[2] انظر :لسان العرب(حزن)٦٢٦/١:٦٢٨.

[3] انظر :الطبقات الكبري ١/ ٢١٠/٢١١ .

[4] انظر لسان العرب(سهل)٢٢٩/٢.

[5] انظر :فتح الباري٥٧٤/١٠.

ومثل ذلك أيضا ما روي "عن أبي حازم بن سهل قال:أتي بالمنذر ابن أبي أسيد إلي النبي صلى الله عليه وسلم حين ولد،فوضعه على فخذه،وأبو أسيد جالس.فلها النبي صلي الله عليه وسلم ،فاستفاق النبي صلى الله عليه وسلم فقال:أين الصبي؟ فقال أسيد:قلبناه يارسول الله .قال:ما اسمه؟قال:فلان،قال:ولكن اسمه المنذر.فسماه يومئذ المنذر".[1]

ورغم أن الإمام البخاري أو الراوي أبا حازم لم يخبرانا عن اسم هذا الصبي ،قبل تسميته باسمه الجديد ،إلا أنه يمكن أن نستدل بتغييره على أنه كان اسما ذا دلالة لا تمت إلي الإسلام بصلة[2] أو لا توحي بالبشر والسرور.ولذلك غيره الرسول صلي الله عليه وسلم ،إلي الاسم الذي يوحي بانتهاء الدنيا ،ووجود الآخرة ،بما فيها من جزاء حسب العمل ، والتخويف من مخالفة أوامر الله تعالي،وهو(المنذر).[3]

ولعل ما حدث مع زينب ابنة جحش أو بنت أبي سلمة. يدلنا على فطنة النبي صلى الله عليه وسلم في التغيير،حيث كان اسمها برة،" فقيل: تزكي نفسها ، فسماها رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب".[4]

فاسم برة هنا اشتق من البر ،الذي هو الصدق والطاعة والخير، وهو ضد العقوق ،وبرة هي زمزم لكثرة منافعها. [5]

---

(1)صحيح البخاري(كتاب الأدب)٧/١٧٧.

(٢)يقول في ذلك ابن حجر:"لم أقف علي تعيينه فكأنه كان سماه اسما ليس مستحسنا ،فسكت عن تعيينه"فتح الباري،١٠/٥٧٦.

(3) انظر:لسان العرب(نذر)٣/٦١٢.

(٤)صحيح البخارى (كتاب الأدب) ٧/١١٧

(٥)انظر لسان العرب(برر)١/١٠٩-١٩٢.

ومن تسمي نفسها بهذا الاسم لابد أن يكون فيها هذه الصفات،وهذا معناه تزكية الإنسان نفسه ،وهو ما نهى عنه الله عز وجل فى قولـــه:(فـــلا تزكوا أنفسكم). (١) ولذلك عدل عنه النبي صلي الله عليـــه وســـلم إلـــي آخر،وهو زينب ،الذي يدل علي شجر حسن المنظر طيب الرائحة ،ينبت في الصحراء.(٢)وهو اسم يعطي الدلالة علي الطيب وحسن المنظر،غير أنـــه لا يوحي بتزكية المرء نفسه،وهو ما أباه الرسول الكريم حين غير الاسم الأول إلي الثاني.

وقد حدث مثل ذلك لجويرية بنت الحارث ،كان اسمها بـــرة فحـــوّل النبي صلى الله عليه وسلم اسمها جويرية وقال"فـــالله أعلـــم بأهـــل البـــر منكم".(٣)

وقد غير كذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم أسماء "كثيرة إلـــي أسماء أفضل منها ؛ ومن ذلك العاصي غيـــره إلـــي مطيـــع ،وعتلـــة إلـــي عتبة،وشيطان إلي عبد الله ،وغراب إلي مسلم ،وحباب إلى عبد الله،وشهاب إلي هشام ،وحرب إلي الحسن ،وغيان إلي رشدان ،وزيد الخيل إلـــي زيـــد الخير ، وغاوي إلي راشد. (٤)

---

(١)سورة النجم٥٣/٣٢.

(٢) انظر:لسان العرب(زنب)٢/٤٩

(٣) صحيح البخاري(كتاب الأدب)٧/١١٨

(٤) انظر:فتح الباري١٠/٥٧٧ وأمالي السهيلي ٢٨ وجمهرة أنساب العرب٤١٥واالاستيعاب٤٠١وهمع الهوامع١/٣١،والطبقات الكبري١/٣٣٣والخصائص١/٢٠٥،والحيوان١/٢٠٤

وقد علم الصحابة - رضي الله عنهم ما في بعض الأسماء من دلالات في نفس الطفل ووالديه ،والمجتمع الذي يعيش فيه ، حيث إن الاسم ينادي به الشخص ويكون رمزا عليه ،قد لا يعرف إلا به ،ولا ينفك عنه أبدا.

ولهذا نجد بعضهم يستشير الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في تسمية أبنائهم ،فها هو أبو موسي الأشعري يقول:"ولد لي غلام فأتيت به النبي صلي الله عليه وسلم ،فسماه إبراهيم،فحنكه بتمرة ،ودعا له بالبركة،ودفعه إليّ..."[1]

ولعل دلالة كلمة إبراهيم ظاهرة واضحة ،فهو علم على أبي الأنبياء إبراهيم الخليل، الذي سمانا المسلمين ،وما يحظى به من احترام ومكانة في النفوس،وهو النبي الوحيد الذي صلى الله وسلم وبارك عليه ،قبل رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم .ولذلك دعا الرسول للطفل بالبركة .كما أن الأديان السماوية قد تفرعت من أولاده ،فالإسلام من إسماعيل،والمسيحية من إسحاق واليهودية من يعقوب .فكأن الرسول الكريم أراد أن يذكر الأمة كلها بهذه الدلالات كلها ،حين سمى ذلك الطفل إبراهيم . كما سمي به ابنه من مارية القبطية رضي الله عنها.

ويحذر الرسول صلى الله عليه وسلم من دلالات بعض الأسماء التي قد تؤدي إلي الشرك ،فيقول :"أخنى الأسماء يوم القيامة عند الله رجل تسمي ملك الأملاك:". [2]

---

(١) صحيح البخاري(كتاب الأدب)١١٨/٧

(٢) صحيح البخاري (كتاب الأدب) ١١٩،١٢٠/٧وقد نقله الزمخشري بلفظ " إن أنخع الأسماء.." انظر:أساس البلاغة (نخع) ٦٢٤

إن الدلالة المركزية الأساسية للمركب الإضافي(ملك الأملاك) تنصرف مباشرة إلي الله عز وجل ،فله سبحانه ملك السموات والأرض وما فيهن .وهو سبحانه يسأل يوم القيامة :(لمن الملك اليوم).[1]

وهو سبحانه يجيب أيضا:(لله الواحد القهار). [2]

وكل العباد أمامه(لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا). [3]

فلاشك أن ملك الأملاك هنا،وفي يوم القيامة أيضا هو الله تعالي،وليس هناك علاقة بين هذا اللقب (ملك الأملاك) ورجل أطلق عليه،بل هي مفارقة كبري بين الدال والمدلول .وهو ما نبه إليه الرسول صلي الله عليه وسلم.

وقد يلقب الرسول صلي الله عليه وسلم أحد الصحابة لقبا ما ،في موقف ما ،مع ما يحمله هذا اللقب من دلالة نفسية في ذهن الملقب ،بحيث يحب صاحب اللقب لقبه:"فعن سهل بن سعد قال:إن كانت أحبَّ أسماء عليٍّ إليه لأبو تراب ،وإن كان ليفرح أن يدعى بها . وما سماه أبو تراب إلا النبي صلى الله عليه وسلم . غاضبَ يوماً فاطمةَ ،فخرج فاضطجع إلي الجدار في المسجد ،فجاءه النبي صلى الله عليه وسلم،وامتلأ ظهره ترابا فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يمسح التراب عن ظهره ويقول:اجلس أبا تراب ". [4]

---

(١) سورة غافر ٤٠/١٦

(٢) سورة غافر ٤٠/١٦

(٣) سورة النبأ٧٨/٣٨

(٤) صحيح البخاري(كتاب الأدب)٧/١١٩.

إن هذا اللقب (أبو تراب) له مدلولات مركزية أساسية هو تذكر بدء الخلق "من تراب ثم من نطفة ".[1] كما يحمل دلالة نفسية ترتبط بالغضب الذي حدث نتيجة موقف ما بين علي وزوجه رضي الله عنهما،و دلالة سياقية أخرى ،تفهم من تدليل النبي صلى الله عليه وسلم لعلي ومواساته له ومشاركته ألمه،ومسح التراب عن ظهره. ولذلك صار هذا اللقب هو أحب الألقاب إليه رضي الله عنه فكان يفرح إذا دعي بذلك. [2]

ولم يقف الأمر عند تغيير بعض الأسماء ،أو اختيار أسماء جديدة وألقاب للصحابة وأولادهم .بل تعداه إلى تغيير أسماء المأكولات ،حتى لا تكون هناك مفارقة بين الرمز والدلالة التي تفهم حين إطلاقه عليها.

فعن"أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:"لا تسموا العنب الكرم".[3]

وذلك لأن العنب قد يصنع منه الخمر ،وهو مسكر ليس فيه مكرمة،وهنا يدل الاسم.على غير ما وضع له،وما يحتويه من دلالات ،بل يدل على عكس المراد من الخمر التي هي من الكبائر .ولذلك يعلل النبي صلى الله عليه وسلم ذلك فيقول:

"ويقولون الكرم ،إنما الكرم قلب المؤمن "[4]

فالكرم هو الجود والخير. والشرف والفضائل ،وهو اسم جامع لكل ما يحمد وهو نقيض اللؤم. [5]

---

(١) سورة الكهف١٨/٣٧

(٢) انظر:فتح الباري١/٥٣٦.

(٣) صحيح البخاري(كتاب الأدب)٧/١١٥

(٤) المرجع نفسه (كتاب الأدب)٧/١١٥

(٥) انظر:لسان العرب(كرم)٣/٢٤٧-٢٤٩

يقول الأزهري عنه : " وتفسير هذا والله أعلم ،أن الكرم الحقيقي هو من صفة الله تعالي ،ثم هو من صفة من آمن به وأسلم لأمره ،وبه سمي العنب لما ذلل من قطوفه عند الينع وكثر من خيره ... وأنه لا شوك فيه يؤذي القاطف .فنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن تسميته بهذا الاسم؛ لأنه يعتصر منه المسكر المنهي عن شربه ،وأنه يغير عقل شاربه ويورث العداوة والبغضاء ،وتبذير المال في غير منفعة ،والرجل المسلم أحق بهذه الصفة من هذه الشجرة".[1]

ويربط الزمخشرى – فيما أورده عنه ابن منظور – ذلك بقوله تعالي :(إن أكرمكم عند الله أتقاكم).[2]فيقول :"أراد أن يقرر ويسدد ما في قوله عز وجل (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) بطريقة أنيقة ومسلك لطيف ،وليس الغرض حقيقة النهي عن تسمية العنب كرما،ولكن الإشارة إلى أن المسلم النقي جدير بأن لا يشارك فيما سماه الله به ..."[3]

كما حاول الرسول صلى الله عليه وسلم أن يعلم الصحابة أن يضعوا اللفظ المناسب للدلالة علي المراد بدقة . ومن ذلك ما روته "عائشة رضي الله عنها ،عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:لا يقولن أحدكم خبثت نفسي،لكن ليقل لقست نفسي".[4]

---

(١) المرجع السابق (كرم)٢٤٩/٢

(٢) سورة الحجرات١٣/٤٩.

(٣) انظر:لسان العرب (كرم) ٢٤٩/٣ ولم أجده فى الكشاف فى تفسير الآية المذكورة. انظر : الكشاف ١٦/٤،١٧ .

(٤)صحيح البخاري(كتاب الأدب)١١٥/٧ وانظر الصاحبي١٠٥وأساس البلاغة(لقس)٥٧٠

ذلك لأن الفعل (خبث)له دلالات تدل على كل سوء، فالخبث ضد الطيب من الرزق والولد والناس ،والخبائث هي الأفعال المذمومة والخصال.وأصل الخبث المكروه،والنجس والفجور والفسق والزنا– وهو – كما نرى – قد جمع كل الخصال السيئة المكروهة،ولذلك أراد صلى الله عليه وسلم أن يغيره إلى الفعل (لقس)،الذي يدل على منازعة النفس للشئ والغثيان والحرص والشره. [1]

ولا تكون دلالة الفعل الاول (خبث)في النفس المسلمة ،ولذلك كرهه صلى الله عليه وسلم ،واستبدل به الفعل (لقس)الذي يدل على شئ عارض يزول ولا يستحوذ على النفس ولا يعيبها .

وأورد ابن فارس (ت٣٩٥هـ)عن النبي صلى الله عليه وسلم :أنه قال:"لا تقولوا دعدع ولا لعلع ،ولكن قولوا اللهم ارفع وانفع ". ثم علق على الحديث بقوله :

"فلولا أن للكلمتين معني مفهوما عند القوم ، ما كرههما النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم".[2]

كما غير الرسول الكريم أسماء بعض الأماكن ،ومن ذلك ما أورده الزمخشري من أنه صلى الله عليه وسلم قد غير اسم طريق بين مكة والطائف حين سماها اليسر تفاؤلا. [3]

---

(١)انظر:لسان العرب(خبث) ١/٧٨١-٧٨٣

(٢)الصاحبي٦٣.

(٣)انظر:أساس البلاغة(ضيق) ٣٨١

ولعل مجمل القول في ذلك هو ما قاله ابن حجر وهو أنه"لا ينبغي التسمية باسم قبيح المعنى ،ولا باسم يقتضي التزكية له ، ووجه الكراهية، أن يسمع سامع بالاسم فيظن أنه صفة للمسمى ".[1]

ولذلك حرص الرسول صلي الله عليه وسلم علي تحديد الدلالة تحديدا قاطعا،ومطابقة اللفظ لما يفهم منه من دلالات نفسية أو اجتماعية أو أساسية؛ سواء بتغيير بعض الألفاظ ،أم بالنهي عن التسمية بها.

(١) فتح الباري ٥٧٧/١٠.

٤

الفصل الرابع

الازدواجية اللغوية في الحديث الشريف

تنقسم اللغة إلى مستويات متعددة ، من حيــث مجــال الاســتخدام الفعلى لها ،ولا توجد لغة تستخدم بمستوى واحد ، أو يستخدمها كل أفرادها المنتمين إليها بطريقة واحدة ، بل لابد من بعض الاختلافات فــى النــواحى اللغوية الأربعة: الصوت والبنية والتركيب والدلالة .

هذه الاختلافات تعنى أن هناك لهجات Dialects مختلفــة للغــة الواحدة يتكلم بها أهلها، فإذا كان هؤلاء الذين يتكلمون اللغة يســتخدمون لهجتين أو لغتين أو لغة ولهجة فهذا هو ما يســمى الازدواجيــة اللغويــة Bilingualism وهذا المصطلح له ترجمات بالعربية ومسميات متعــددة ، منها .

١) الثنائية اللغوية.
٢) الازدواجية اللغة .
٣) ثنائية اللغة .
٤) ازدواجية اللغة[1]

وهذه الاختلافات فى استخدام اللغة من " القواعــد المقــررة عنــد علماء اللغة، (حيث) يستحيل على مجموعة بشرية تعــيش فــى مســاحة أرضية شاسعة أن تصطنع فى حديثها اليومى لغة موحدة تخلو من اختلاف صوتى أو دلالى أو اختلاف فى البنية أو التركيب ،(وهذه) القضية ليست فى حاجة إلى برهنة فاللغات التى تعيش بيننا الآن تعانى من هذه الظاهرة ،ولا يمكن تجنبها فى أية لغة من اللغات " [2]

وهناك أنواع للازدواجية اللغوية منها :

---

[1] انظر الثنائية اللغوية ١٧

[2] فصول فى فقه العربية ٥ ، ٦

١- الازدواجية اللغوية الأفقيـة Horizontal Bilingualism وتعنـى استخدام المجتمع لغتين متساويتين فى المكان ، على المسـتوى الرسـمى والثقافى والأسرى .

٢- الازدواجيـة اللغويـة الرأسـمالية Vertical Bilingualism أى استخدام المجتمع لغة فصحى ولهجة عامية تابعة لها .

٣- الازدواجية اللغوية الفرديـة Individual Bilingualism وتعنـى استخدام فرد ما لغتين مختلفتين .

٤- الازدواجية اللغوية الاجتماعيـة Societal Bilingualism وتعنـى استخدام المجتمع كله لغتين .

٥- الازدواجية القطرية Diagonal Bilinguatism وتعنى استخدام لغة فصحى ولهجة عامية من لغة أخرى لا تتبعها .

٦- الازدواجية اللهجية Bidiactalism أى استخدام لهجتـين عـاميتين للغة واحدة بصورة متماثلة[١] .

وهذا الازدواج اللغوى الرأسى وغيره أيضاً ظاهرة موجـودة فـى جميع اللغات منذ القدم ولا سبيل إلى إنكارها [٢] .

ويمكن أن تدرس هذه الأنواع من الازدواجية السابقة فى مجتمع ما على ضوء عوامل لغوية متصارعة كاللغة المهيمنة ولغة الأكثريـة ولغـة الأقلية ولغة التعليم ،كما يمكن دراسة تأثيراتها على المسـتوى السـكانى والسياسى [٣] .

---

[١] أنظر P. Trudgill ; Sociolonguistics , P. ٨١
H . Beardsmore , Bilingualism m Basic principles , pp.٤-٥

[٢] فصول فى فقه العربية و P. Trudgill 'Saciolinguistics , P,١٨-٢٠

[٣] انظر H.B eardsmore, Bilingualism P.٤

ولعل ما يحدث الأن فى البلاد العربية من استخدام اللهجات العامية المحلية ؛ بصورة متكاملة فى السوق والشارع والبيت والعمل وبعض وسائل الإعلام المسموعة والمرئية ؛ يمكن أن ينضم تحت هذا النوع الأخير من الازدواجية وهو الازدواجية اللهجية .

أما ما سوف نعرض له فى الحديث الشريف - فهو الازدواجية الرأسية ؛ حيث إن اللغة العربية كانت تستخدم قديماً فى صورة فصحى تمثلت فى الشعر والآثار النثرية المروية عن العرب كالخطب والوصايا والحكم والأمثال، كما استخدمت فى صورة لهجات مختلفة تبعاً للقبائل المختلفة التى كانت تعيش آنذاك فى شبه الجزيرة العربية. وهذه اللهجات هى تنوع أو اختلاف صوتى أو صرفى أو نحوى أو دلالى عن اللغة الفصحى[١] .

وقد حفظت لنا كتب اللغة كثيراً من هذه الاختلافات التى عرفتها اللغة الفصحى آنذاك ، قبل نزول القرآن الكريم وبعده. ومنها ما وضحته هذه المصادر وأتت بشواهد عليه وذكرت موطنه ،ومنها ما اكتفت بذكر اسمه فقط .

وهذه اللهجات التى تمثلت فيها بعض الخلافات اللغوية هى :

١ - استنطاء سعد بن بكر والأزد وقيس وهذيل .
٢ - أكلونى البراغيث ، فى بلحارث بن كعب وطئ .
٣ - تضجع قيس .
٤ - تلتلة بهراء .

---

[١] انظر : فى اللهجات العربية ١٦ واللغة ٣١٢ وفصول فى فقه العربية ٧١،٢٧
P.Trudgeil , Sociliguistics , P.١٧

٥- رتة العراق .

٦- شنشنة تغلب واليمن .

٧- طمطمانية حمير .

٨- عجرفية ضبة .

٩- عنعنة قضاعة .

١٠- غمغمة تميم .

١١- غمغمة قضاعة .

١٢- فحفحة هذيل .

١٣- فراتية العراق .

١٤- قطعة طيئ .

١٥- كسكسة بكر وهوازن .

١٦- كشكشة ربيعة ومضر .

١٧- لخلخانية الفرات .

١٨- وتم اليمن .

١٩- وكم ربيعة وكلب .

٢٠- وهم كلب (١) .

ومعظم هذه اللهجات تقع تحت الخلاف الصوتى ، سواء فى النبـر (كما فى القطعة) أم فى تقصير المقطع كما فى اللخلخانية أم فى الحركـات وتغييرها من ضمة إلى كسرة أو من فتحة إلى كسرة ؛كمـا فـى التلتلـة

---

(١) وقد فصل هذه اللهجات ووفاها حقها عرضاً وتحليلاً وشرحاً أستاذنا د. رمضان عبـد التواب فى كتابه القيم : فصول فى فقه العربية ١١٦-١٥٤.

والوهم والوكم والوتم ،أم فى التبادل بين الفونيمات كما فى الاستنطاء والشنشنة والكسكسة والكشكشة والعجعجة والعنعنة والفحفحة .

على حين لا نجد اختلافات صرفية تذكر إلا فى بناء صفة المفعول من الفعل الثلاثى الأجوف على مثال الصحيح (مفعول) ([1]).

أما الخلاف النحوى فيوجد فى لهجة أكلونى البراغيث ، وأما الخلاف الدلالى فلا يمكن أن يندرج تحت لهجة معينة ، وذلك لاختصاصه بالمعنى الذى لابد من تصوره مع كل كلمة من كلمات اللغة فى أى سياق أو مفردة وحدها .

كذلك ليست كل هذه اللهجات ذات درجة شيوع واحدة فى الاستخدام اللغوى، فبعضها لم تذكر عنه المعاجم وكتب اللغة ما يفيد فى تحديده أو تعريفه أو وصفه؛ ومن ذلك اللخلخانية والفراتية والتضجع والرتة والعجرفية والغمغمة ؛حيث لا يفهم منها إلا أنها جفاء عن الكلام ، أو سماع الصوت وعدم تبيان حروفه (أصواته) أو سرعة فى النطق ،وغير ذلك من الصفات التى لا يمكن تطبيقها إلا على الكلام المنطوق .

وأكثر هذه اللهجات دوراناً على الألسنة وشيوعاً فى الاستخدام اللغوى هى العنعنة والفحفحة والطمطمانية والتلتلة والاستنطاء ولهجة أكلونى البراغيث .

وقد ورد فى الحديث الشريف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نطق بالاستنطاء وأكلونى البراغيث والطمطمانية .

وسوف نتعرض لهذه اللهجات ؛ لمعرفة كيفية استخدامها فى الحديث الشريف ،وأقوال العلماء القدامى والمعاصرين عنها .

([1]) انظر الكتاب ٣٤٨/٤ والخصائص ١٦١/١، ٢٦٠ والمنصف ٢٨٣/١ وأوضح المسالك ٣١٦.

"لهجة الاستنطاء"

الاستنطاء كلمة على وزن (الاستفعال)، وهى مصدر للفعل الثلاثى المزيد بالهمزة والسين والتاء (استنطى) من الفعل الثلاثى المجرد (نطى) ولها معان كثيرة نجملها فيما يلى :

المعنى اللغوي:

جاء فى معاجم الألفاظ [1] أن النطو هو المد ،والفعل منه هو: نطوت الحبل إذا مددته ،والنطو هو البعد والنطاة قمع البسرة والشمروخ والنطو هو السكوت بلهجة حمير[2].

ومنه أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يملى على الشعبى كتاباً وهو يستفهمه فدخل رجل فقال له : أنط أى اسكت [3].

المعنى الاصطلاحي :

هو قلب العين الساكنة نوناً إذا جاورتها طاء بعدها[4].

موطنها :

تنسب هذه اللهجة إلى قبائل سعد بن بكر وهذيل وقيس والأزد والأنصار[5]

---

(1) هى المعاجم التى عالجت اللفظ مفرداً بترتيب مخرجى أو ألفبائى حسب أول الكلمة أو آخرها وقد ذكرت ذلك تمييزاً لها عن معاجم الموضوعات .

(2) لاحظ أن هنا تغييراً دلالياً للكلمة .

(3) انظر لسان العرب (نطى) ٣/٦٦٤ والمعجم الوسيط ٢/٩١٣ والقاموس المحيط ٤/٣٩٦ وأسا س البلاغة ٦٤٠.

(4) انظر فصول فى فقه العربية ١٢٠

(5) انظر الاقتراح فى علام أصول النحو ٨٣ والمزهر فى علوم اللغة ١/٢٢٢ ولسان العرب (نطى) ٣/٦٦٤

شواهدها :

قول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم .

- اليد المنطية خير من اليد السفلى ، أى المعطية .
- لا مانع لما أنطيت ولا منطى لما منعت ،أى لما أعطيت ولا معطى .
- أنطه كذا ، أى أعطه [1] .

تفسيرها :

- إن الذى حدث فى الأحاديث الشريفة السابقة هو إبدال العين الساكنة نوناً ، إذا كان بعدها طاء . ولا يمكن لعلم اللغة الحديث ؛ بقوانينه الصوتية المعروفة؛ أن يعلل أو يفسر تحول فونيم العين إلى النون . ذلك لأن إبدال الأصوات بعضها من بعض لا يحدث صدفة ، بل لابد من قوانين معينة يخضع لها هذا الإبدال ؛ومنها اتحاد المخرج وقرب الصفات أو اتحاد الصفات وقرب المخرج كما فى فونيمات :
- العين والحاء والعين والهمزة ، والجيم والدال والياء، والميم والنون واللام والميم [2] وهذا هو ما عرفه ودرسه نحاة العربية بدءاً من سيبويه (ت١٨٠هـ)[3] ومروراً بابن جنى (ت٣٩٢هـ) [4] والسيوطى (ت٩١١هـ) [5]

---

[1] انظر النهاية فى غريب الحديث ٧٦/٥ ولسان العرب ٦٦٤/٣ والمعجم الوسيط ٩٣١/٢و تأويل مشكل القرآن ٢٣٧

[2] انظر الكتاب ٤٤٨/٤ وما بعدها

[3] انظر المرجع نفسه ٤٤٥/٤ وما بعدها .

[4] انظر سر صناعة الإعراب ١٩٧/١.

[5] انظر المزهر ٤٦٠/١ وما بعدها

أما إبدال العين نوناً فليس له سبب صوتى معروف ،فبين الصوتين بعد كبير فى المخرج فالعين صوت حلقى رخو مجهور مرقق[1] .والنون صوت أنفى متوسط مجهور مرقق[2] .

فهما لا يشتركان إلا فى صفتى الجهر والترقيق ،وبذلك لا يمكن أن يبدل أحدهما إلى الآخر أبداً ،ولعل هذا هو السبب فى عدم تعرض علماء اللغة العرب القدامى لدراسة هذا التغيير أو بيان أسبابه .

وقد تعرض لتفسير هذا التغيير من العين إلى النون بعض اللغويين المحدثين .

فمن اللغويين الغربيين نجد رابين C.Rabin الذى فسرها باستخدام المنهج المقارن حين ربط بين الفعل (أنطى) فى العربية والفعل Natan נָתַן فى العبرية (مد)، ثم ربط هذا الفعل فى التركيب נָתַן יָדוֹ אֶל natan yadu el (مد يده إلى) .

ربطه بالفعل العربى (أمطى) فى الجملة (أمطى الظهر) أى أعطاه المطية ،ثم حاول أن يربط الفعل (أنطى) بما يقابله فى اللغتين الحبشية والأمهرية [3].

ومن اللغويين العرب نجد د. إبراهيم السامرائى وأستاذنا د.رمضان عبد التواب ، قد تعرضا لهذه اللهجة ولتفسيرها .

فأما د. السامرائى فقد حاول أن يفسرها باستخدام المنهج الوصفى، دون اللجوء إلى المقارنة باللغات السامية الأخرى ،حيث رأى أن النون لا

---

(1) المدخل إلى علم اللغة ٥٥ والأصول ١١٩ والأصوات اللغوية ٨٨

(2) المراجع نفسها على التوالى ٤٩/١٢٥/٦٦

(3) انظر -C.Rabin , Ancient West Arabian , p .٣٢

تقابل العين فى أعطى، وإنما جاءت من أن الفعل كان (أتى) بمعنى أعطى ثم ضعّف الفعل فصار (أتّى) بتشديد التاء ،ثم فكّ هذا الإدغال بالمخالفة بصوت النون كما يحدث فى كثير من الكلمات العربية مثل : جَدل وجَنْــدل فصــار الفعل أنتى، ثم فخمت التاء طاء فجاءت صيغة (أنطى) [1].

وأما أستاذنا الدكتور رمضان عبد التواب فقد استخدم المــنهج المقارن فى تفسيرها ،فبحث عن مقابل أعطى فى اللغة العبرية والسريانية؛ حين قال : " إننا إذا رجعنا إلى اللغات السامية لنبحث فيها عن مقابلة كلمة (أعطى) وجدنا فى العبرية נָתַן (natan) أى نون، وتاء ونــون وفى السريانية فى المضارع ܢܶܬܶܠ Yettell مع إدغام النون الأولــى فى التاء والنون الثانية فى لام الجر .

ولعل ما حدث فى لغة هذه القبائل التى روى عنها الاستنطاء هــو عملية نحت لما فى هاتين اللغتين واللغة العربية ، فأخذ فــاء الفعــل مــن العبرية والسريانية ، وبقيت عينه ولامه كما هى فى العربية " [2] .

ثم يدلل على صحة تفسيره هنا بما حدث لكلمة (يمامة) العربيــة ، فهى منحوتة من كلمة ܝܰܡܝܳܐ yamya السريانية وهى تبــدأ باليــاء ، وكلمة حمامة فى العربية[3] .

وهذه اللهجة لها شواهد أخرى فى القرآن الكريم والشعر العربــى القديم؛ ففى القرآن الكريم قوله تعالى (إنا أعطيناك الكوثر) [1] ،حيث قرأت (أنطيناك) [2].

---

[1] انظر دراسات فى اللغة ٢١٧

[2] فصول فى فقه العربية ١٢٢

[3] المرجع نفسه ١٢٢

كما وردت فى قول لقيط بن زرارة لأخيه معبد - وقد طلب إليه حين أسر - أن يفديه بمائتين من الإبل :

" ما أنا بمنط عنك شيئاً يكون على أهل بيتك منه سكباً ويدرب له الناس درباً " (٣)

وفى الشعر نجد قول الأعشى .

جيادك فى القيظ فى نعمة .. تصان الجلال وتنطى الشعيرا (٤)

كما أن قلب العين نوناً مع مجاورتها الطاء ، دون التقيد بتسكينها ، قد جاء قول العرب (عطشان نطشان) (٥) ،وهو ما عرف بالإتباع .

---

(١) سورة الكوثر ١/١٠٨

(٢) انظر تفسير القرطبى ٢١٦/٢٠ وهى قراءة شاذة عن الحسن وطلحة بن مصرف .

(٣) أساس البلاغة (سكب) ٣٠٢

(٤) الإبدال ٣١٨/٢ والبيت من المتقارب ،

(٥) انظر لسان العرب (عطش) ٨١١/٢

" لهجة أكلونى البراغيث "

هذه اللهجة الوحيدة ذات الاسم المكون من جملة فعلية وليست ذات اسم مشتق (مصدر) ،كما فى بقية أسماء اللهجات العربية، ولعل صاحب هذه التسمية هو سيبويه الذى كان أول من مثل لها فى كتابه ،واختار لها هذا المثال[1] ." فقال فى قول من قال " أكلونى البراغيث" [2] .

المعنى الاصطلاحى :

تعنى هذه اللهجة مطابقة الفعل للفاعل فى العدد من حيث التثنية والجمع ؛أى إلحاق علامة تثنية أو جمع للفعل ليطابق فاعله [3].

موطنها :

قبيلة بلحارث بن كعب وطيئ وأزد شنوءة .

شواهدها :

الأحاديث التالية :

١) " يتعاقبون" فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون فى صلاة الفجر وصلاة العصر " [4] .

٢) " اللهم حوالينا ولا علينا ، فانحدرت السحابة عن رأسه فسقوا الناس حولهم " [5] .

---

(1) انظر بحوث ومقالات فى اللغة ٧٠

(2) الكتاب ١٩/١

(3) انظر المرجع نفسه ٤١،٤٠/٢ والكافية ١٤٤/٢ ، مغنى اللبيب ٣٧٨/٢ وشذور الذهب ١٧٩،١٧٦.

(4)صحيح البخارى (كتاب الصلاة) ١٣٩/١

(5)المرجع نفسه (كتاب الاستسقاء) ١٩/٢

٣) " من كن له ثلاث بنات؛ ويؤويهن ويرحمهن ويكفلهن ؛وجبت له الجنة ألبته " [١].

٤) " فارجعوا حتى يرفعوا إلينا عرفاؤكم أمركم " [٢].

٥) " لو كانت وراءكم أمة من الأمم لخدمن نساؤكم نساءهم كما يخدمنكم نساء الأمم قبلكم " [٣].

٦) " كن نساء المؤمنات يشهدن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الفجر متلفعات بمروطهن ، ثم ينقلبن إلى بيوتهن حين يقضين الصلاة لا يعرفهن أحد من الغلس " [٤].

تفسيرات اللهجة :

لعل هذه الظاهرة هي أكثر الظواهر اللهجية التي نالت اهتمام اللغويين والمفسرين العرب ،أما المحدثون فلم يشرحوها .ومنهم ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) في شرحه لحديث (كن نساء المؤمنات)يقول :
" قال الكرماني : هو مثل أكلوني البراغيث لأن قياسه الإفراد وقد جمع" [٥].
وفي شرحه لحديث(يتعاقبون فيكم ملائكة) :يعتمد على المفسرين فيقول " قال الطبري في تفسيره " .[٦]

وأما المفسرون فنجد منهم القرطبي (ت٦٧١هـ) يقول عنها توجيهاً لآية المائدة (ثم عموا وصموا كثيراً منهم):" أي عمى كثير منهم

---

[١] مسند أحمد ٣٠٢/٣ وانظر ٢٧/٦ بلفظ من كن له بنات أو ثلاث.

[٢] صحيح البخاري (كتاب الوكالة) ٦٢/٣

[٣] مسند أحمد٣٨/١٢

[٤] صحيح البخاري (كتاب الصلاة) ١٤٤/٢ وسنن الترمذي ٢٨٧/١.

[٥] فتح الباري ٥٥/٢

[٦] المرجع نفسه ٣٤/٢

وصم بعد تبين الحق لهم بمحمد عليه الصلاة والسلام؛ فارتفع كثيـر علـى البدل من الواو، وقال الأخفش سعيد: كما تقول : رأيت قومك ثلـثهم .وإن شئت كان على إضمار مبتدأ ؛ أى العمى والصم كثير منهم، وإن شئت كان التقدير: العمى والصم منهم كثير، وجواب رابع أن يكون على لغة من قـال أكلونى البراغيث ... ويجوز في غير القرآن (كثيراً) بالنصب ، ويكون نعتاً لمصدر محذوف" [1]

وإن كان القرطبي هنا قد أورد أربعة توجيهات فى هذه الآية ، فقد أورد سبعة توجيهات فى آية الأنبياء ، حين قال :

" (وأسروا النجوى الذين ظلموا) أى تناجوا فيما بينهم بالتكذيب ، ثم بين من هم فقال : الذين ظلموا ،أى الذين أشركوا. فالذين ظلموا بدل من الواو فى (أسروا) ،وهو عائد على الناس المتقدم ذكرهم ... قال المبرد : وهـو كقولك إن الذين فى الدار انطلقوا بنو عبد الله ، فبنو بدل مـن الـواو فـى انطلقوا وقيل هو رفع على الذم ،أى هم الذين ظلموا ،وقيل : علـى حـذف القول ،والتقدير: يقول الذين ظلموا ... واختار هذا القول النحـاس قـال : والدليل على صحة هذا الجواب أن بعده :(هل هذا إلا بشر مـثلكم).وقـول رابع : يكون منصوباً بمعنى : أعنى الذين ظلموا . وأجاز الفراء أن يكـون خفضاً بمعنى اقترب للناس الذين ظلموا حسابهم ... وأجاز الأخفش الرفـع على لغة من قال أكلونى البراغيث : وهو حسن ... وقال الكسـائى: فيـه تقديم وتأخير، مجازه : والذين ظلموا أسروا النجوى" [2]

---

[1] تفسير القرطبى ٢٤٨/٦

(٢) المرجع نفسه ١١/ ٢٦٨ ،٢٦٩ و انظر : إعراب القرآن ٣٦٦/٢

وإذا كان سيبويه هو أول من وضع لهذه اللهجة اسمها فهو أيضاً أول من شرحها وحاول تفسيرها فقال :

" واعلم أن من العرب من يقول ضربونى قومك ، وضربانى أخواك، فشبهوا هذا بالتاء التى يظهرونها فى(قالت فلانة) ، وكأنهم أرادوا أن يجعلوا للجمع علامة ، كما جعلوا للمؤنث ،وهى قليلة " [1]

ومع أن سيبويه هنا قد حكم بأن الضمير المتصل بالفعل علامة للجمع وليس ضميراً ، إلا أنه يعود فيرى أنه ضمير وبدل من الفاعل؛ وذلك فى معرض حديثه عن قوله تعالى (وأسروا النجوى الذين ظلموا) فقال: وأما قوله جل ثناؤه (وأسرو النجوى الذين ظلموا) ، فإنما يجئ على البدل، وكأنه قال : انطلقوا ، فقيل من ؟ فقال : بنو فلان . فقوله عز وجل " وأسروا النجوى الذين ظلموا " على هذا فيما زعم يونس" [2] .

ومن اللغويين أيضاً نجد أبا البقاء العكبرى (ت٦١٦هـ) فى تعليقه على حديث (من كن له ثلاث بنات ...) يقول :

" وقع فى هذه الرواية (كنّ) بتشديد النون ، والوجه : من كان له أو من كانت له ، والوجه فى الرواية المشهورة أنه جعل النون علامة مجردة للجمع ، وليست اسما مضمراً ، كما أن تاء التأنيث فى قولك : قامت وقعدت هند ، علامة لا اسم وقد ورد عنهم ذلك ... وعليه حمل قوله تعالى: (ثم عموا وصموا كثير منهم) و(وأسروا النجوى الذين ظلموا) فى أحد الوجهين ،وقيل النون اسم مضمر، وهو فاعل وثلاث بدل منه .ومن هذا

---

[1] الكتاب ٤٠/٢

[2] المرجع نفسه ٤١/٢ ويونس هوابن حبيب البصرى (ت١٨٣هـ) من أوائل النحويين. انظر أخبار النحويين البصريين ٥١ وطبقات النحويين ٥١.

قولهم : أكلوني البراغيث [1] كما نرى السيوطي(ت٩١١هـ) يعترض على حديث (يتعاقبون فيكم ملائكة)فيقول : إن الواو فيه علامة إضمار لأنه حديث مختصر رواه البزار مطولاً مجرداً ،قال فيه : " إن لله ملائكة يتعاقبون فيكم ، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار [2] ولو فطن السيوطي إلى صحيح البخاري ،وهو أصح مما يرويه البزار ،لرأى أنه قد ورد الحديث بنص آخر عند البخاري ،نفسه ، وهو : (الملائكة يتعاقبون ملائكة بالليل وملائكة بالنهار...) [3] .

كما ورد حديث (يرفعوا إلينا عرفاؤكم)، بلفظ آخر وهو إفراد الفعل (يرفع) في راوية أخرى[4].

كما يرى في موضع أخر أن الضمائر الملحقة بالأفعال في هذه اللهجة حروف مثل (أل وتاء التأنيث) لا ضمائر [5] .

وقد أحسن ابن الحاجب صنعاً (ت٦٤٦هـ) ،حين لم يتعرض لها بالشرح أو التأويل ، بل اكتفى بذكرها فقط فقال :

"وكذا إذا سميت بـ(يضربان ويضربون) على لغة (يتعاقبون عليهم الملائكة) " [1]. واكتفى أيضاً شارح الكافية ،الرضي الاستراباذي بقوله" يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار... الحديث " [2]

---

[1] إعراب الحديث النبوي ٧٧

[2] الاقتراح ١٩/١٨وانظر : خزانة الأدب ١٤/١، ٢٣٤،٢٣٥/١٥

[3] صحيح البخاري (كتاب بدء الخلق) ٨١/٤

[4] انظر المرجع نفسه (كتاب العتق) ١٢٢/٣ وكتاب الهبة ١٣٩/٣ وكتاب فرض الخمس ٥٤/٤ وكتاب المغازي ١٠٠/٥ وكتاب الأحكام ١١٥/٨ ولعل هذا الإفراد يدل على اختلاف قبيلة المخاطب وبالتالي اختلاف لجهته .

[5] انظر همع الهوامع ١٦٠/١ ،

أما ابن هشام الأنصارى (ت٧٦١هـ) فقد اكتفى بذكرها وذكر شواهد عليها دون شرحها، إلا فيما يختص بالآيتين السابقتين ، فقال فى شذور الذهب : " ومن العرب من يلحق علامات دالة على ذلك ، كما يلحق الجميع علامة دالة على التأنيث ، كقوله:

تولى القتال المارقين بنفسه .. وقد أسلماه مبعد وحميم [٣] .

وقوله (يتعاقبون) وقول بعض العرب(أكلونى البراغيث) ... وقد حمل على تلك اللغة آيات من التنزيل العظيم ، منها قوله سبحانه وتعالى (وأسروا النجوى الذين ظلموا). والأجود تخريجها على غير ذلك، وأحسن الوجوه فيها إعراب (الذين ظلموا) مبتدأ و (أسروا النجوى) خبر ...[٤]. ورغم أنه هنا يختار التقديم والتأخير فيعرب الفاعل مبتدأ والفعل جملة فعلية خبراً له ، إلا أنه يتأرجح مرة أخرى فى" قاما أخواك فإن الألف إن قدرت حرف تثنية، كما أن التاء حرف تأنيث فى (قامت هند) ،أو اسماً وأخواك بدل منها، فالجملة فعلية ،وإن قدرت اسما وما بعدها مبتدأ فالجملة اسمية قدم خبرها"[٥] .

من كل ما سبق نرى كيف حاول اللغويون العرب القدماء تفسير هذه الظاهرة ،وذلك عن طريق التأويلات العقلية ورأوا لها سبعة تأويلات ، مطبقة على آية سورة الأنبياء ، هى :

---

[١] الكافية ١٤٤/٢

[٢] المرجع نفسه ١٤٤/٢.

[٣] البيت لعبيد الله بن قيس الرقيات وهو من الطويل ، انظر ديوانه ٢٩٦ .

[٤] شذور الذهب ١٧٦-١٧٩

[٥] مغنى اللبيب ٣٧٨/٢

١- الفاعل بدل من الضمير المطابق له فى الفعل .

٢- الفاعل ليس فاعلاً بل هو اسم مرفوع على الذم .

٣- الفاعل ليس مرفوعاً بفعله المذكور المطابق له ، بل هو مرفوع بفعل محذوف تقديره (يقول) أو أى صيغة أخرى له .

٤- الفاعل ليس مرفوعاً بل منصوباً بفعل محذوف تقديره أعنى .

٥- الفاعل ليس مرفوعاً بل مجروراً بما قبله من الكلام .

٦- الرفع على لغة أكلونى البراغيث .

٧- الفاعل مبتدأ مؤخر ، والفعل قبله جملة فعلية خبر مقدم .

ومع كل هذه التأويلات ، لم نجد من اللغويين المحدثين من يفند هذه الآراء ، أو يلتمس تفسيراً مناسباً لهذه الظاهرة [1] إلا أستاذنا الدكتور رمضان عبد التواب - رحمه الله تعالى - حيث استخدم المنهج المقارن من خلال مقارنة هذه الظاهرة بنظائرها فى اللغات السامية الأخرى كالعبرية والحبشية والسريانية فرأى أن العبرية يتطابق بين الفعل وفاعله، كما فى:

לא יקמו רשעים במשפט

(لا يقومون الأشرار بالعدل)

وكذلك فى اللغة الحبشية كما فى :

[illegible] (وعادوا الشعوب)

والأمر أيضا فى السريانية كذلك مثل .

[illegible] (لئلا يزنوا الآخرون بامرأتك)

---

[1] هناك من المحدثين من عرض لهذه الظاهرة فقط دون دراستها ، انظر : اللغة والنحو ٦١ وفى أصول النحو ٦٥ والحديث الشريف وأثره فى الدراسات اللغوية ٩٢،٩٥

ثم استنتج من هذه المقارنة أن الأصل فى اللغات السامية- بما فيها اللغة العربية – أن يلحق الفعل علامة التثنية والجمع للفاعل المثنى والمجموع؛ كما تلحق علامة التأنيث عندما يكون الفاعل مؤنثاً سواء بسواء ثم تخلصت العربية الفصحى من هذه الظاهرة رويداً رويداً ، غير أن بقاياها ظلت حية عند بعض القبائل العربية القديمة، كما بقيت بعض أمثلتها فى الفصحى .وما زالت للآن فى لهجات مصر فى مثل قولهم (زارونا الجيران وظلمونى الناس) .

وقد سمى هذه الظاهرة ؛ الاختفاء والظهور لظاهرة لغوية معينة؛ الركام اللغوى[1] .

ولعل هذا التفسير هو الأنسب فى تأويل هذه اللهجة ؛ لأنه لم يلجأ إلى افتراضات ذهنية من حيث التقديم والتأخير وغيرهما .بل اعتمد على المنهج المقارن، وبحث فى جذور اللغة العربية الفصحى مقترنة بغيرها من أخواتها الساميات، كما سار مع العربية فى رحلة تطورها حتى العصر الحاضر متمثلة فى العاميات والفصحى المعاصرة.

ورغم أن الحديث الشريف قد جاء عنه ستة أحاديث على هذه اللهجة إلا أنه لم يشتهر إلا حديث واحد هو(يتعاقبون فيكم ملائكة) ، مع أن ثلاثة أخرى وردت فى صحيح البخارى، والخامس فى مسند الإمام أحمد. ويلاحظ فى حديث (فسقوا الناس) أن هذه الجملة ليست من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم .بل هى شرح لذلك الموقف من الصحابى الذى روى الحديث .ونستدل على ذلك بإيراد جزء من الحديث يوضح ذلك وهو:" فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسقوا الغيث فأطبقت عليهم سبعاً وشكا

---

[1] انظر بحوث ومقالات فى اللغة ٦٩، ٧٠

الناس كثرة المطر. قال "اللهم حوالينا ولا علينا. فانحدرت السحابة عن رأسه فسقوا الناس حوله ".

أى إن جملة الدعاء (اللهم حوالينا ولا علينا) من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، أما باقى الكلام فهو وصف من الصحابى للموقف أو السياق الخارجى الذى قيلت فيه هذه الجملة السابقة .

ولا تقتصر شواهد هذه اللهجة على الحديث الشريف ،بل هناك من القرآن الكريم آيتان تناولهما المفسرون الذين سبقت الإشارة إليهم وهاتان الآيتان هما قوله جل وعلا :

- ثم عموا وصموا كثير منهم [١] .
- وأسروا النجوى الذين ظلموا [٢] .

ومن الشعر العربى نجد أيضاً كثيراً من الأبيات المبثوثة فى كتب النحاة عن معالجتهم هذه الظاهرة ، منها :

قول أمية بن أبى الصلت :

- يلومننى فى اشتراء النخيـ (م) ل أهلى فكلهم يعذل [٣]

قول عمرو بن ملقط :

ألفيتا عيناك عند القفا ... أولى فأولى لك ذا واقية[٤]

قول عبيد الله بن قيس الرقيات :

تولى قتالى المارقين بنفسه .. وقد أسلماه مبعد وحميم[٥]

---

[١] سورة المائدة ٧١/٥

[٢] سورة الأنبياء ٢/٢١

[٣] ديوان أمية بن أبى الصلت ١٦ وشرح شواهد المغنى ٢٦٥ وشرح التصريح ١٦٠/١ وهمع الهوامع ١٦٠/١ والبيت من المتقارب وهو مدور.

[٤] شرح شواهد المغنى ١١٣ والصاحبى ٢٨٥ وتأويل مشكل القرآن ٤١٧ والبيت من السريع .

[٥] ديوان قيس الرقيات ٢٩٦، والبيت من الطويل .

لهجة الطمطمانية

المعنى اللغوي:

كلمة الطمطمانية مشتقة من الفعل الرباعى المضعّف طمطم الـــذى هو بمعنى عدم الإفصاح يقال : طمطم فى كلامه إذا لم يفصح ،والطمطمانية هى العجمة ، وطم البحر إذا زاد وعم[1] .

المعنى الاصطلاحى:

لهجة من لجهات اللغة العربية القديمة، تقلب لام مورفيم التعريــف (أل) (ميما) [2].

موطنها :

قبيلة حمير وطيئ والأزد [3].

شواهدها :

قوله صلى الله عليه وسلم :

(ليس من امبر امصيام فى امسفر) [4] .وهو بمعنى ليس من البر الصـــيام فى السفر.

تفسيرها :

لم يتعرض من القدماء أحد لتفسير هذه الظاهرة اللهجية أو التعليق عليها إلا السخاوى ، حيث نقل عنه أبو البقاء بن يعيش" فى هذا الحـــديث يجوز أن يكون النبى صلى الله عليه وسلم تكلم بذلك لمن كانت هذه لغتـــه،

---

(1) انظر لسان البلاغة طم ٢/٦١٥و٦١٦ والقاموس المحيط ٤/١٤٥ والمعجـــم الوســـيط ٢/٥٦٩ وأساس البلاغة ٣٩٦

(2) انظر : لسان العرب(طم)٢/٦١٥ والمعجم الوسيط ٢/٥٦٩ وشرح المفصل ١٠/٣٣ .

(3) انظر مجالس ثعلب ١/٥٨ والمزهر ١/٢٢٣ وفقه اللغة ١٧٣

(4) انظر المراجع السابقة بصفحاتها المذكورة .

أو تكون هذه لغة الراوى التى لا ينطق بغيرها لأن النبى صلى الله عليه وسلم أبدل اللام ميما " [1].

كما علق على هذه الظاهرة أيضاً الأزهرى فقال: والوجه ألا تثبت الألف فى الكتابة لأنها ميم جعلت كالألف واللام.[2]

ويعلق ابن يعيش (ت ٦٤٣هـ) على هذه الظاهرة فيرى :" أنه لم يرد عن النبى صلى الله عليه وسلم سوى هذا الحديث ومع ذلك فهو شاذ لا يقاس عليه غيره " [3] .

وواضح من هذه التعليقات أنها ليست تفسيرات لهذه الظاهرة، فبينما يحاول السخاوى نفى صدور هذه اللهجة من النبى صلى الله عليه وسلم، ويجعلها واردة عن الراوى وحده نجد أن الأزهرى يتكلم عن ناحية كتابية ، ويحكم أن الميم بدل عن (أل) التعريف كلها وليست من اللام وحدها فقط .

ولكنهم لم يشرحوا السبب فى قلب اللام ميماً وهو مالم يفعله أى لغوى قديم [4] .ويؤيدون كلام السخاوى بشأن عدم نطق النبى صلى الله عليه وسلم بهذه اللهجة، وأن تكون هى لهجة الراوى الذى روى الحديث الذى جاء عنه صلى الله عليه وسلم فى صحيح البخارى بسنده بلفظ ليس من البر الصيام فى السفر[5] .أما اللغويون المحدثون فلا بد نجد منهم من تعرض لهذه اللهجة بالشرح أو التفسير إلا أستاذنا الدكتور رمضان عبد

---

[1] شرح المفصل ٣٣/١٠، ٣٤ والنحاة والحديث النبوى ١١٨

[2] المرجعان السابقان وصفحاتهما نفسها .

[3] شرح المفصل ٣٤/١٠

[4] انظر مجالس ثعلب ٥٨/١ ومغنى اللبيب ٤٨/١وجمهرة اللغة ٢٧٤/١

[5] صحيح البخارى (كتاب الصوم) ٢٣٨/٢

التواب ، حين رأى أن قلب اللام فى مورفيم التعريف (أل) ميماً ، حدث بسبب قرب مخرجيهما حيث إن الأصوات المائعة (ل ، م ، ن ، ر) تتناوب فيما بينهما كثيراً ، وهذا ليس خاصاً بالعربية وحدها بل موجوداً فى كل اللغات السامية[1] .

ومع وجود كثير من أمثلة هذا التبادل بين هذه الفونيمات فى اللغة العربية، إلا أنه لم يورد من ذلك شيئاً .

ونظرة فى كتب الإبدال تدل على ذلك مثل :

لعل – لعن – رعل

هتل – هتن

الغيم – الغين[2] .

وقد تعرض لهذه اللهجة دون أن يسميها أحد الباحثين ، بل اكتفى بقوله " حسب لغة الجنوب ... وتلك لغة حمير[3]

وليست هذه الظاهرة مقصورة على الحديث الشريف، فقد كانت شائعة فى الجاهلية وعصور الاحتجاج، ومن أمثلة ورودها فى غير الحديث الشريف .

قول بجير بن غنمة الطائى :

ذاك خليلى وذو يعاتبنى   يرمى ورائى بامسهم وامسلمه[4]

قول بعض العرب :

---

[1] انظر فصول فى فقه العربية ١٢٩/١٣٠

[2] انظر الإبدال ٦١/٧٧

[3] الحديث النبوى الشريف وأثره فى الدراسات اللغوية ٧٥

[4] لسان العرب (ذو) ٣٤٧/٢٠ ومغنى اللبيب ٤٨/١ والبيت من المنسرح

قام امرجل أى قام الرجل (١) ٠

خذ الرمح واركب امفرس أى الفرس (٢) ٠

---

(٥) مجالس ثعلب ٢/٥٨

(٦) مغنى اللبيب ١/٤٨



٥

الفصل الخامس

الدلالة الحركية في الحديث الشريف

أجمع اللغويون القدامى منهم والمحدثون ،على أن اللغة هي أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم ،بهدف توصيل الأفكار والعواطف والأحاسيس. [1] فاللغة إذن وسيلة الاتصال والتفاهم بين البشر ،وإذا كان هذا هو تعريف اللغة ،فإنه يمكن اعتبار كل وسيلة يعبر بها عن فكرة ما ،أو انفعال معين لغة أيضا.فالصورة لغة ،والموسيقى لغة ،والحركة لغة،والإشارات لغة.وبذلك لا يقتصر تعريف اللغة على اللغة اللفظية verbal Language وحدها. [2]

حيث يستخدم الناس في علاقاتهم الاجتماعية الإشارة إذا أعوزتهم الكلمة ،والنظرة إذا لم تكف الإشارة". [3]

وهذا هو ما عناه الجاحظ حين قال إن الله تعالى قد " قسم الأقساط ورتب المحسوسات وجعل الموجودات فجعل اللفظ للسامع وجعل الإشارة للناظر". [4]

ولابد لانتقال الفكرة من اللفظ أو الإشارة. [5]

وقد رأي الجاحظ أيضاً أن الإيضاح عما في النفس أو ما سماه البيان "أقسام أربعة : لفظ ،وخط ،وعقد ،وإشارة". [6]

---

(١) انظر:الخصائص ١/٣٣ومقدمة ابن خلدون ٥٤٦والحيوان ١/٤٤.

P.Trudgill,sociolinguististics,P.١٤

-D.Crystal , linguistics,P.٢٣٩

(٢) انظر:علم النفس اللغوي٢٨

(٣) اللغة-فندريس٣٥

(٤) الحيوان ١/٤٥

(٥) انظر:شرح الإسنوي١/١٦٤

(٦) الحيوان ١/٣٣،وانظر البيان والتبين ١/٧٦،٧٧

فإلى جانب هذه اللغة اللفظية المتمثلة في الألفاظ والكلمات التي ننطقهـا أو نكتبها أو نقرؤها لغة أخري غير لفظية .والمظهر اللفظي من اللغة يعد من خصائص لغة الإنسان ،كما يعد أقوى مظاهر النمو العقلي والحسي والعقلى. هو وسيلة من وسائل التفكير والتخيل والتذكر عنـد البشـر،وقد تسـتخدم الإشارة Sign بدلا من اللفظ ،حيث تؤدي فهما معينا ،وتخدم الغرض نفسه الذي تسعى الألفاظ إلى تحقيقه .واللغة غير المنطوقة أو المسـموعة قـد تكون مرئية أى تراها العين عن طريق الإشارة، وهى بذلك تؤدى ما تؤديه اللغة اللفظية.فحركة اليد ،وإيماءة الرأس ،وغمز العـين وضـم الشـفتين ،وطرف الجفون ،وتصفيق اليدين ،ورفعهما للدعاء أو بسطهما للسؤال كل هذه إشارات تعني غرضا معينا ،مثلما تعنيه ألفاظ معينة. (١)

كما رأى ابن خلدون أن " للحركات والهيئات اعتبارا في الدلالة على المقصود ".(٢)

وهذا التقسيم بالنسبة لمرسل اللغة ،في حالة الكلام أو الإشارة أمـا بالنسبة للمستقبل ،فاللغة لديه كذلك قسمان هما:

– لغة سماعية ،تعتمد في إدراكها علي الأذن ،وهو الكلام المسموع.

– لغة بصرية ،تعتمد في إدراكها علي العين ،وهي الكلام المكتوب،وإشارات اليدين وتعبيرات الوجه ".(٣)

وتنقسم اللغة البصرية إلي نوعين ،من الناحية النفسية ،هما:

---

(١) انظر:علم اللغة النفسي٢٥/٢٦وعلم النفس اللغوي٥٦-٦٢و-

D.Crystal,Linguistics,P.٢٣٩،٢٤٠.

(٢) المقدمة٥٤٦

(٣) انظر:علم اللغة النفسي٢٦/٢٧

- نوع شعوري يحتاج إلي تعليم ومران،كإشارات الجنود. [1]

وتبعا لذلك فإن التعبير عما في النفس من معان وأفكار وعواطـف يتم عن طريقين هما:

- **المنطوق:**

من الجهاز الصوتي مصحوبا بالإشارة ،أو بدونها ،أو الكتابة.

- **الصامت:**

وذلك بمخاطبة الذات Solilogyأي مناجاة النفس بالتفكير ،أو التحدث إلـى النفس أثناء حل مشكلة ما ،أو كتابة يوميات أو إعداد عناصـر موضـوع ما. [2]

كما تكتسب اللغة عادة بطريقتين:

- **طريقة طبيعية :**

تتمثل في سماع الألفاظ المنطوقة ،ورؤية ما يصاحبها من إشـارات باليد أو غيرها.

- **طريقة مكتسبة:**

تتمثل في قراءة اللغة المكتوبة ،سواء بواسطة العـين أم غيرهـا كاليد في حالة فقد البصر. [3]

ومع أن هذه الحركات لها هذه الأهمية في اللغـة ،حيـث لا يفهـم الكلام جيدا بدون النظر إلي حركات المتكلم. [4]فـإن كريسـتل D.Crystal

---

(١) انظر:علم اللغة النفسي٢٦

(٢) انظر:المرجع نفسه٢٧

(٣) انظر:المرجع نفسه٢٧

(٤) -D.crystal,lingauistics.P.241

يري أنه لا يجوز إطلاق مصطلح لغة على هذه الحركات ،بـل يطلـق هـذا المصطلح علي الاتصال الكلامي فقط Vocal Communication[١]

وإذا كانت اللغة بهذا القدر من الأهمية ،سواء عن طريق المرسل أم المستقبل ،فإنها تصير ذات أهمية كبرى ،إن كانت مسـتخدمة فـي الحيـاة اليومية ذلك لأن لغة الحياة اليومية بها العديد من المعاني والاختلافات،وهذا يرجع إلي أن الفرد لا يتكلم ليصوغ أفكارا فحسب ،بل إنه يتكلم ليؤثر فـي غيره ،ويعبر عن انفعالاته إزاء هذا الموضوع أو ذلك ... فالعبارة اللفظيـة التي ننطقها تتصف بشحنات انفعالية خاصة ، قد تظهر في تغيير الصوت أو حدة في الحديث تأكيداً على بعـض الألفـاظ واسـتخدام الاشـارات أثنـاء الحديث،أو نغمات معينة".[٢]

ولما كانت اللغة ليست ألفاظا فحسب،بل هى إشارات وحركات أثناء الكلام المنطوق،فإن "استيحاء الدلالة غير مقصـور علـى حـروف اللفـظ وأصواته ،بل قد تتدخل الصيغة ،أو بنية اللفظ في هذا الاستيحاء".[٣]،فهـذه الأصوات أو الحروف لا تعبر عن الدلالة تعبيرا دقيقا"، بل لابد من الإحاطـة بكل ظروف الكلام وملابساته،فالفهم عن طريق الوقوف على تلك الظـروف والملابسات عملية تتم قبل فهم النص اللغوي أو العبارة المنطوق بها".[٤]
وهذه الظروف والملابسات هي ما تسمى مكونـات السـياق Context of Stuation وهذا السياق هـو الموقـف اللغـوي أو المسـرح اللغـوي

(١) Ibild P.241-

(٢) علم النفس اللغوي٣٧ نقلا عن : Baurdon , l'wxpression des Emotions et des Tendonces-

(٣) دلالة الألفاظ٨٩

(٤) المرجع نفسه ٤٥

Linguistic Theater الذي يصاحب الكـلام ويشـمل حالـة المـتكلم والمستمع،وظروفهما النفسية ،وشخصية كـل منهمـا وظـروف الحـديث وأسبابه .وهذا السياق يمكن أن يوحي بمعان متباينة ،نستدل عليهما " مـن حركات الفرد المتكلم أثناء موقف ما. إذ إنه يقصد من هذه الحركات التعبير عن فكرة أو انفعال ،أي نقل مـا فـي ذهنـه وشـعوره وإحساسـه إلـى الآخرين.وبالتالي يكون التلويح باليد للمسافر حركة ذات معنى معين،كما أن هز الرأس يعتبر علامة معينة على التأكيد والموافقة على أمر ما. وكـذلك الإشارات التي يستخدمها الكشاف ،سواء باليد أم بالصفارة .كلها تعبر عـن معان معينة ،يراد إيصالها للآخرين والحركات التي يؤديها الممثلون علـى خشبة المسرح ،ما هي إلا تعبير عـن فكـرة أو موضـوع يقصـد نقلـه للمتفرجين".[1]

وهذه الحركات والإشارت لا تأتي اعتباطا ،بل تتم عن طريق معـان محددة متميزة ،يعنيها المتحدث ويفهمها المتلقـي .ومعنـى ذلـك اتفـاق الطرفين على استخدام هذه الرموز للتعبير عن الدلالات المقصودة ،ويفهـم من ذلك أن هناك ارتباطا غير مباشر بين الجهاز العصبي للمتكلم والجهـاز العصبى للمخاطب".[2]

وذلك كالاستدلال بالضحك على السـرور ،وبالبكـاء علـى الألـم والمناقشة والتعليم .

---

(١) علم النفس الغوي٢٨

(٢)علم اللغة النفسي١٠٧

وكذا سائر صور الإشارات.[1] مما سبق يتبين لنا أن الحركة المصاحبة للكلام ليست اعتباطية ،بل هى رمز لغوي منظم له دلالته ،التي لا تفهم إلا من السياق اللغوي المرتبط به الكلام .

وهي لازمة للكلام المنطوق ،إذ " لابد لبيان اللسان من أمور ،منها إشارة اليد ولولا الإشارة لما فهموا ".[2]

ولعل أقرب المفهوم من الإشارة هو"رفع الحواجب ،وكسر الأجفان وليّ الشفاه ،وتحريك الأعناق ،وقبض جلدة الوجه".[3]

كل هذه الحركات والإشارات يهتم بها علم يسمى علم الكينات Kinesics أو لغة الجسم.[4]

ومبتكر هذا العلم هو راي بيردوسلRay L.Birdwhistell،ويري هولHall أن حركة العينين عند العرب تدل العداء والتحدي أثناء كلامهم.[5]

وإذا كان "الأصل في اللغة أن تكون منطوقة لا مكتوبة دائرة على الألسنة لا مسجلة في بطون الكتب"[6]، فإن حديث رسول الله عليه وسلم صلى الله عليه وسلم – في أصل وضعه– كلام منطوق في مواقف لغوية مختلفة ،في السلم والحرب ،والصلاة ،والحج ،والبيع ،والشراء والمناقشة والتعليم .كما أن المخاطب ،أو مستقبل هذا الكلام لم يكن على وتيرة واحدة

---

(١) انظر :الحيوان ١/٧٠

(٢) المرجع السابق ١/٥٠

(٣) المرجع نفسه١/٤٨

(٤) انظر دراسات في علم اللغة١٥٩

(٥)E.Hall,the hidden Dimension P.161–

(٦) كلام العرب١١٧

من التعليم والثقافة والفهم ،بل كان صـــحابيا يريـــد أن يـــتعلم أو أعرابيـــا يسأل،أو مشركا يستهزئ ،أو كافرا يجحد ،أو كتابيا يحسد.[1].وبالتالي كانت بيئة هذا المخاطب متنوعة ،بين البادية والحضر.

ولهذا جاء كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم مختلفا في كل حالة عن الأخرى.

وتبعا لذلك اختلفت دلالة الحركة في الحديث الواحد عن غيره مـــن الأحاديث .وفي تعرضنا للحركة في الحديث الشريف ،نجد أنها نوعان هما :

- الحركة الإشارية باليد.
- حركة الوجه كله وهو الإعراض أو الإيماء.

وليست للإشارة دلالة واحدة بعينها ،بل هـــي ذات دلالات متنوعـــة حسب الموقف اللغوي .حيث تدل على الموافقة أو الرفض أو التوضيح ،أو التقريب ،أو اختصار الكلام ،أو التدليل ،أو التأكيـــد أو التعظـــيم– وكـــذلك الإعراض قد يدل على الاستنكار ،أو التأكد أو الموافقة ،أو الكراهيـــة.إلـــى غير ذلك من المعاني التي تدور في الذهن ،وتعبر عنها الحركة المســـاعدة للكلام ،أو المستقلة بمعناها.

و" الأصل في ألفاظ اللغة أن تكون مفهومة من الناطقين بهذه اللغة،متداولة بينهم،جارية علي ألسنتهم لا يحتاجون إلى إيضاح شئ منها ،ولا يســـألون عن شرح أية كلمة فيها ".[2]

---

(١) يتكلم الجاحظ عن السياق الغوي،وبخاصة طبيعة المخاطبين في القرآن الكريم فيقول:"ورأينا الله تبارك وتعالي إذا خاطب العرب والأعراب ،أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي والحذف،وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكي عنهم جعله مبسوطا،وزاد في الكلام"الحيوان ١/٩٤

(٢) كلام العرب ١١٧

وينبغي أن نشير إلى أننا بهذا لا نقصد الإشارة في اصطلاح الأصوليين، وهى دلالة اللفظ على ما لم يقصد له أصلا ،وهى محل خلاف كثير بينهم،ودلالتها إلزامية. [1]

كما لا نقصد الإشارة في إصلاح البلاغيين ،وهى:

التعويض والإيماء إلى المعنى دون التصريح. [2]

وستظهر هذه الدلالات المتنوعة فيما سنتناوله فى الصفحات التالية.

---

(1) انظر أصول الفقه ١٢٠-١٢١

(2) انظر الصاحبي٤١٦ والمزهر ٣٧٨/١

الإشارة في الحديث

يمكن أن نوضح دلالة الإشارة في الحديث النبوي باستعراض الأحاديث التالية:

أولا:التوضيح:

١-"عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:يقبض العلم،ويظهر الجهل والفتن ،ويكثر الهرج .قيل : يا رسول الله وما الهرج؟ فقال :هكذا بيده فحركها كأنه يريد القتل ".(١)

فقد نابت إشارة اليد كما عبر عنها أبو هريرة (هكذا)،عن جملة (الهرج هو القتل).وهو ما فهمه ذلك الصحابي ،فوضح الإشارة بقوله(كأنه يريد القتل).وهنا يبدو التحرز في الفهم؛ حيث لم يعبر عن الحركة باليد بدلالة قطعية ،كأن يقول (إنه كان يريد القتل)، بل قال ما فهمه هو باستخدام أداة التشبيه (كأن).أي" كأن ذلك فهم من تحريك اليد وحركتها كالضارب".(٢)

٢- "عن عمر بن الخطاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إذا أقبل الليل من ها هنا ،وأدبر النهار من ها هنا،وغربت الشمس فقد أفطر الصائم".(٣)

يمكن أن تفهم الإشارة في هذا الحديث من خلال كلمة(ها هنا)وهي ظرف مكان ،يحمل دلالته من غير إشارة،وتكون عامة غير محددة بجهة ما،ولكن باستخدام إشارة اليد تتحدد دلالتها بدقة،وقد تكررت هنا مرتين في

---

(١) صحيح البخارى (كتاب العلم) ٢٩/١

(٢) المرجع نفسه ١٨٢/١

(٣) صحيح البخاري كتاب الصوم٢٤١/٢،٢٤٠،٢٣٧و(كتاب الطلاق)١٧٦/٦

المرة الأولي تدل على جهة الشرق ،حيث يأتي الظلام ويقبل الليـل .وفـي المرة الثانية تعني جهة الغرب ،حيث تغيب الشمس ويدبر النهار.

ولم يشرح عمر بن الخطاب راوي الحـديث المـراد مـن هـاتين الإشارتين ،كما شرح أبو هريرة في حديثه السابق.

وقد فطن ابن حجر العسقلاني إلى دلالة الإشارة هنا،فقال:

"ولكنه ربما يعني أن الإشارة مع قوله(وغربت الشمس)لتحقق الإدبار ومجئ الظلمة".(1)

ومثل الحديث السابق، من حيث الإشارة بلفظ (ها هنا)،حديث آخر هو:

"عن عبد الله قال:قام النبي صلى الله عليه وسلم خطيبا ،فأشار نحو مسـكن عائشة فقال :ها هنا الفتنة (ثلاثا)من حيث يطلع قرن الشيطان".(2)

وبلفظ آخر وهو "يشير إلى المشرق فقال......".(3)

ولكن الفارق بين الإشارة هنا والحديث السابق أنها هنـا موضـحة من عبد الله بن عمر بقوله،(فأشار نحـو مسـكن عائشـة)،فـي الروايـة الأولى،وقوله(يشير إلي المشرق) في الرواية الثانية.

وقد يفهم من الراوية الأولي أن الإشـارة تعنـي جـنس النسـاء كلهن،حيث يأتي منهن الفتنة ،ويفهم من الثانية فتنـة المـال والفتوحـات الإسلامية ،التي بالشرق في العراق وفارس.

أما حديث عمر بن الخطاب السابق ،فلـم يوضـح المقصـود مـن الإشارة فيه،بل اكتفى بإيراد نص الحديث فقط.

---

(1) فتح الباري3/196

(2) صحيح البخاري(كتاب فرض الخمس)4/46وكتاب بدء الخلق4/97وكتاب المناقب4/157

(3) المرجع نفسه(كتاب بدء الخلق)4/93وكتاب المناقب4/154وكتاب الفتن8/95

٣ -"عن أبي ذر قال:كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم ...ثم قال إن الأكثرين هم الأقلون إلا من قال بالمال هكذا وهكذا .وأشار أبو شهاب بين يديه وعن يمينه وعن شماله..."(١)

نجد هنا أن الإشارة قد صاحبها لفظ (هكذا) ،وهو نهاية كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم أراد أحد رواة الحديث ،وهو أبو شهاب ،أن يوضح هذه الكلمة ،التي ليس لها دلالة إلا بالإشارة التي تصاحبها وتوضحها ،كما أراد أن يحيطها بموقفها اللغوي الذي قيلت فيه.ولذلك أشار بين يديه وعن يمينه وعن شماله ،ودلالة هذه الإشارة هنا هى الإنفاق في سبيل الله ،وتوضيح العطاء في كل جهة.

٤ -"عن أبي موسي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ،وشبك بين أصابعه ".(٢)

الإشارة هنا هي التشبيك بين الأصابع ،وهي إشارة توضح مدى القوة الحادثة من الاتحاد،كما توضحها جملة (يشد بعضه بعضا) ، وهي إشارة "لمقصود التمثيل ،وتصوير المعني في النفس بصورة الحس".(٣)

والملاحظ هنا أن وصف هذه الإشارة جاء من أبي موسى راوي الحديث .

٥ -"عن زينب بنت جحش أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليها فزعا،يقول :لا إله إلا الله ،ويل للعرب من شر قد اقترب ،فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا ،وحلق بإصبعه وبالتي تليها .فقلت :يا رسول الله:أنهلك وفينا الصالحون ؟قال: " نعم إذا كثر الخبث ".(٤)

---

(١) صحيح البخاري(كتاب الديون والاستعواض)٨٢/٣.

(٢) المرجع نفسه(كتاب المظالم)،٩٨/٣وكتاب الأدب٨٠/٧.

(٣) فتح الباري٥٦٦/١.

(٤) صحيح البخاري(كتاب المناقب)١٧٦/٤.

الإشارة هنا هى تحليق إحدى الأصابع بالتي تليها ،وهى توضيح للضمير الإشاري (هكذا).وهذا التوضيح جاء عن طريق جملة:

(وحلق بإصبعه وبالتي تليها)،وليست هذه الجملة من كلام النبي صلى الله عليه وسلم ،بل هي من كلام أم المؤمنين زينب بنت جحش التي روت الحديث .وهذه الإشارة تدل على حجم ذلك الجزء المفتوح من الردم بدقة.ومن البدهي أن تحليق إصبعين للدلالة على شئ مستدير مفتوح يكون بالإبهام والسبابة ،ولشيوع هذه الإشارة عند العرب ،لم تذكر أم المؤمنين اسم الإصبعين اللذين أشار بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم.

٦-" عن عائشة رضي الله عنها قالت :لما رجع النبي صلى الله عليه وسلم من الخندق ،ووضع السلاح واغتسل ،أتاه جبريل عليه السلام فقال:قد وضعت السلاح ،والله ما وضعناه فاخرج . قال :فإلى أين؟قال : ها هنا ، وأشار إلى بني قريظة .فخرج النبي صلى الله عليه وسلم إليهم".[١]

نجد أيضا هنا كلمة(ها هنا)،التي تعني الإشارة إلى مكان ما،كما مر في الحديث السابق تحت رقم(٢) وكلمة (هاهنا) ليست من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ،بل من كلام جبريل عليه السلام الذي أشار ،ربما بيده،إلى الوجهة التي يراها،والتي وضحتها أم المؤمنين عائشة بجملة (وأشار إلى بني قريظة).

٧-"عن سهل بن سعد قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بإصبعيه هكذا بالوسطى والتي تلي الإبهام : بعثت والساعة هكذا ".[٢]

---

(١) المرجع نفسه(كتاب المغازي) ٤٩، ٥٠، ٥١

(٢) المرجع نفسه(كتاب الطلاق) ١٧٨/٦ وكتاب الأدب ٧٦/٧.

النص الذي قاله الرسول الكريم هو جملة(بعثت والساعة هكذا)،مع الإشارة الموضحة لكلمة هكذا ،أما باقي الحديث فهو توضيح وتفسير لهذه الإشارة،التي وضحت مدى اقتراب الساعة بعد بعثة النبي صلى الله عليه وسلم.

ولذلك استخدمت الإشارة بالوسطى والسبابة ،أو بتعبير الصحابي راوي الحديث (التي تلي الإبهام) للدلالة على توضيح هذا القرب ،فليس بين هاتين الإصبعين ثالث،لأنهما متجاورتان.

كما تكررت هذه الإشارة في حديث آخر،للدلالة السابقة نفسها ،وهى القرب،وذلك في حديث:

" عن سهل بن سعد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا،وأشار بالسبابة والوسطى ،وفرج بينهما شيئا ".[١]

فهى هنا تحمل الدلالة نفسها ،وهى القرب المكاني في الجنة ،بين رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن يكفل يتيما .وتستخدم الإشارة نفسها الآن للدلالة على الأخوة والحب والتواصل .

وقد تكررت هذه الأشياء في حديث آخر ،ولكنها احتملت دلالة أخرى،وهى الأعلام أو تلك الرايات التي تتخذ علامة معينة على جمع من الناس ،في حرب أو نحوها وهذا الحديث هو.

"عن أبي عثمان النهدي قال: أتانا كتاب عمر ،ونحن مع عتبة بن فرقد بأذربيجان ،أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن الحرير إلا هكذا وأشار بإصبعيه اللتين تليان الإبهام .قال،فيما علمنا إنه يعني الأعلام".[٢]

---

(١) صحيح البخاري (كتاب الديون والاستعواض)٨٢/٣.

(٢) صحيح البخاري (كتاب اللباس) ٤٤/٧.

وهنا نلاحظ حرص راوي الحديث علي التفسير المقصود من الإشارة وتوضيحه ،بقوله:(فيما علمنا أنه يعني الأعلام).كما نلاحظ عدم القطع اليقيني في فهم الدلالة من هذه الإشارة ،بل إنه يورد ما فهمه الصحابة آنذاك. [1]،وهو واضح من (فيما علمنا)،أي في فهمنا نحن ،من خلال رؤية الإشارة بالإصبعين المذكورتين.

ولعل هذه الإشارة لا تعني العلم فقط ،بل تعني العلم المرفوع الذي يشير إلى الغلبة والانتصار .وقد اختفت هذه الدلالة على العلم ،وبقيت دلالة الانتصار - إلي يومنا- عن طريق رفع هاتين الإصبعين.(٢)

٨-"عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر يوم الجمعة فقال:فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو قائم يصلي يسأل الله تعالى شيئا إلا أعطاه إياه وأشار بيده يقللها ".[2]

الإشارة هنا لتوضيح مدى هذه الساعة التي تجاب الدعوات فيها. وهى إشارة باليد .ونجد هنا الإشارة مبهمة غير معروفة(في كلا الموضعين) هل هى من فعل الرسول الكريم نفسه أم الصحابي راوي الحديث ؟ يقول في ذلك ابن حجر العسقلاني :"وأشار بيده ،كذا بإبهام الفاعل، وفي رواية أبي مصعب عن مالك (وأشار رسول الله صلى الله عليه وسلم) ، وفي رواية مسلم بن علقمة...(ووضع أنملته على بطن الوسطي أو الخنصر ،قلنا يزهدها)....وكأنه فسر الإشارة بذلك ،وأنها ساعة

---

(١) ويعرف ذلك بالدلالة الظنية ،أو دلالة الظاهر ،وهو اللفظ الذي ظهرت دلالته علي المعني الذي لم يسق له،واحتمل غيره احتمالا مرجوحا.انظر:أصول الفقه ١٢٩-١٣٠.

(٢) الإشارة الحديثة مأخوذة من فونيم (٧) فى أول كلمة victory بمعنى النصر ، باللغة الإنجليزية

(٢) صحيح البخاري في كتاب الجمعة ٢٢٤/٢ وكتاب الدعوات ١٦٦/٧.

لطيفة تنتقل ما بين وسط النهار إلى قرب آخره .وبهذا يحصل الجمع بينه وبين قوله(يزهدها)أي يقللها".[1]

ثانيا:الموافقة:

تدل الإشارة علي موافقة المخاطب أو السائل فيما يريد،وذلك في الأحاديث التالية:

١ -"عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل في حجته فقال: ذبحت قبل أن أرمي ،فأوما بيده قال:لا حرج ،وقال :حلقت قبل أن أذبح،فأوما بيده ولا حرج ".[2]

فالإيماء باليد ،أو الإشارة هنا صاحبها جملة(لا حرج)،وهذا يدل على موافقة السائل فيما فعل .وقد تكررت الإشارة مرتين ،مع ازدواج الرمز الدال على المعني المراد وهو الموافقة ،وهذه الازدواجية هى اللغة البصرية (الإشارة) مع اللغة المنطوقة المسموعة ،وهى جملة (لا حرج).

ويري ابن حجر العسقلاني في هذا الحديث أنه صلى الله عليه وسلم يحتمل أن يكون جمع بين الإشارة والنطق ،والتقدير فأومأ بيده قائلا : لا حرج. [3]

٢ -"عن سهل بن سعد ..فأخذ الناس في التصفيق ،وكان أبو بكر رضى الله عنه لا يلتفت في صلاته ،فلما أكثر الناس التفت فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ،فأشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمره أن يصلي..".[4]

---

(١) فتح الباري٢/٤١٦.

(٢) صحيح البخاري(كتاب العلم)١/٢٩.

(٣) انظر:فتح الباري ١/١٧١.

(٤) صحيح البخارى (كتاب الصلاة) ٢/٦٨ وكتاب الصلح ٣/١٦٥ وكتاب الأحكام ٨/١١٨.

هذا الحديث طويل ،وقد اقتصرت منه على هذا الجزء المراد ،وفيه نرى أن الإشارة نوعان:

أولاهما : هي التصفيق من جانب أكثر الصحابة المصلين محاولة منهم لتنبيه أبي بكر الصديق لوجود النبي صلى الله عليه وسلم بينهم ،حتى عن الإمامة له.ولم يفهم الصديق هذه الإشارة سريعا،إلا بعد التكرار وربما لها عن فهمها بانشغاله في الصلاة.

ثانيتهما : هي إشارة رسول الله صلى الله عليه وسلم ،التي فهم منها الاستمرار في الإمامة ،كما فهمها كل المصلين ولذلك توقفوا عن إشارة التصفيق ،ويلاحظ هنا أن كل هذا الحديث وصف لموقف معين ،وليس فيه من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم شئ ،إلا الإشارة فقط.

وقد فهم الصحابة أن الإشارة قد تعني الموافقة ،فراحوا "يستخدمونها ،ومن ذلك ما روي" عن أسماء بنت أبي بكر أنها قالت:أتيت عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ،حين خسفت الشمس فإذا الناس قيام يصلون ،وإذا هي قائمة تصلي .فقلت ما للناس ؟ فأشارت بيدها إلى السماء،وقالت :سبحان الله .فقلت :آية : فأشارت ،أي نعم...".[١]

الإشارة هنا واحدة ،ولكنها ذات دلالتين مختلفتين ،فالأولى تدل على أن سبب الصلاة هو السماء ،التي حدث بها الخسوف ،والثانية تعني الموافقة على أن ما فهمته السائلة هو الخسوف،والذي هو آية من الله سبحانه .وهذا الفهم هو ما عبرت عنه السيدة أسماء بجملة (أي نعم).

---

(١) صحيح البخاري (كتاب الصلاة) ٢/٦١.

ثالثا النهي:

من خلال الأحاديث التالية ،يمكن أن نستدل على أن الإشارة قد تدل على النهي ، من جانب مستخدمها :

١ -"عن عائشة رضي الله عنها قالت:كنت أمد رجلي في قبلة النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلي ،فإذا سجد غمزني فرفعتها ،فإذا قام مددتها".(١)

نجد هنا أن الإشارة هي الغمز باليد ،وهو يعني مس يد رسول الله صلي الله عليه وسلم للسيدة عائشة برفق أثناء الصلاة ،وذلك إشارة منه لها كي ينهاها عن مد رجلها أمامه في موضع سجوده .وقد فهمت هي هذه الإشارة ،فكانت ترفع رجلها حين يسجد ،ثم تمدها حين يقوم من سجوده.

والملاحظ هنا أن هذا الحديث ذو موقف لغوي يعتمد كله على الإشارة ،إذ ليس فيه كلام قط ،بل كل من النبى وزوجه في حالة نفسية معينة ، تختلف عن الآخر.

أما عند الإشارة فقد تحولت الحالة النفسية لأم المؤمنين ،وفهمت أنه صلى الله عليه وسلم يأمرها أن ترفع رجلها من مكان سجوده ،ليستمر هو في حالته النفسية التي تستوجبها الصلاة.

٢ -"عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤتي بالتمر عند صرام النخل ،فيجئ هذا بتمره ،وهذا بتمره ،حتى يصير عنده كوما من تمر .فجعل الحسن والحسين رضي الله عنهما يلعبان بذلك التمر ،فأخذ أحدهما تمرة فجعله(٢) في فيه ،فنظر إليه رسول الله صلى الله

---

(١) صحيح البخاري (كتاب الصلاة) ٦١/٢.

(٢) هكذا في الأصل (فجعله) ولعل الصحيح(فجعلها)،ليعود الضمير علي التمرة المؤنثة ،ويعضد ذلك عودة الضمير في (فأخرجها) بالتأنيث .ويمكن تذكير الضمير عائدا علي جنس التمر..

صلي الله عليه وسلم ،فأخرجها من فيه،فقال : أما علمت أن آل محمـــد لا يأكلون الصدقة".[1]

إن الموقف هنا ليس فيه إلا الإشارة ،منذ أن جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه الحسن والحسين وجاء الناس بتمر الصدقة .ثم يتناول أحدهما تمرة من ذلك التمر ،فلا يتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل تنوب الإشارة من عينيه؛ دلالة على النهي ؛ عن قوله :لا تفعلا ذلك .

ومع ذلك فقد فهم الحسن والحسين هذه الإشارة ،فــأخرج أحــدهما هذه التمرة من فيه،ولم يكتف الرسول الكريم بهذه الإشارة واســتجابتها،بل عقب على ذلك بكلام يفهم منه ما فهم من الإشارة ذاتها.

رابعا:التدليل:

قد تدل الإشارة،فيما تدل عليه ،على التدليل ،ويمكن أن نستدل على ذلك من الحديث التالي:

-" عن أبي هريرة قال:كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في ســوق من أسواق المدينة ،فانصرف فانصرفت ،فقال :أين لكع ؟(ثلاثا)،ادع الحسن ابن علي.فقام الحسن بن علي يمشي وفي عنقه السخاب ،فقال النبي صلى الله عليه وسلم بيده هكذا ،فقال الحسن بيده هكذا ،فالتزمه فقال:اللهم إنــي أحبه فأحبه وأحب من يحبه".[2]

يتجلى الموقف اللغوي هنا في الحالة النفسية التي جعلت رسول الله صلي الله عليه وسلم يظهر حبه للحسن بن علي ،ومــن ثــم فقــد ســأل عنه،ولما جاء إليه رضي الله عنه ،أشار له جده الكريم بيده دلالــة علــى

---

(١) صحيح البخاري (كتاب الزكاة)١٣٤/٢ والطبقات الكبري٣٨٩/١.

(٢) المرجع نفسه (كتاب اللباس) ٥٥/٧.

التدليل والحب ،ففهمها الحسن، فاستجاب بمثلها ،ومن ثم التزمه جده .ودلل علي مكانته عنده بما قال بعد ذلك .وهنا أنابت الإشارة باليد عن الكلام الدال علي الحب والتدليل.

خامسا:التأكيد:

للإشارة دلالة علي التأكيد ،وذلك نراه من خلال الحديث التالي:

-"قال ابن عمر :قال النبي صلى الله عليه وسلم ،لا يعذب الله بدمع العـين ولكن يعذب بهذا ،فأشار إلى لسانه".(١)

فهنا نجد أن الإشارة باليد إلى اللسان دلت على تأكيد العذاب عند استخدامه في الحزن على الميت .وقد كان يمكن أن تكون الجملة هكذا (ولكن يعـذب باللسان)، ولكن لابد من تأكيد وجود العذاب ،حتى يخافه من يفعله .ولـذلك أشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم،وعبر عنـه بضـمير الإشـارة (هذا)،مبالغة في التأكيد.

سادسا:التعظيم:

تأخذ الإشارة دلالة التعظيم،ويتضح ذلك من خلال ما يلي:

١-"عن أنس بن مالك يقول:خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسـلم.. فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم راجعا ،وبدا له أحد قال:هذا جبل يحبنا ونحبه ،ثم أشار بيده إلى المدينة ،قال:اللهم إني أحرم ما بين لابتيها كتحريم إبراهيم مكة،اللهم بارك لنا في صاعنا ومدنا ".(٢)

نرى هنا أن الرسول الكريم يقترب من المدينة المنـورة ،ويشـعر بعظمتها وجلالها ومكانتها الدينية السامية .ولذلك يقول عن جبل أحد (هـذا

---

(١) صحيح البخاري (كتاب الطلاق) ١٧٥/٦ وكتاب الجنائز ٨٥/٢.

(٢) المرجع نفسه (كتاب الجهاد) ٢٢٣/٣.

جبل يحبنا ونحبه) دون أن يشير إليه ،بل يستخدم ضمير الإشارة المناسب له ،أما عندما يرى المدينة المنورة ،فيشير إليها للتعظيم ،وبيان منزلتها.ولذلك يدلل على هذا التعظيم بالدعاء لها بالبركة في المأكل وهو(صاعنا ومدنا).

٢-"عن ابن عباس قال:طاف رسول الله صلى الله عليه وسلم على بعيره،وكان كلما أتى على الركن أشار إليه وكبر... " (١)

الإشارة هنا لتعظيم ركن الكعبة ،كلما أتى تجاهه الرسول الكريم، وهنا نجد أن الإشارة ليست وحدها في هذا السياق ،بل تبعها كلام (الله أكبر).وهي جملة يفهم منها تعظيم الله عز وجل ،وهنا اجتمع التعظيم بالإشارة ،مع التعظيم بالكلام .ويلاحظ هنا في هذا الحديث وما سبقه أن راوي الحديث لم يشرح دلالة الإشارة فيه.

سابعا:اختصار الكلام:

قد تأتي الإشارة عوضا عن كلام ما ،دون أن تحتمل أي دلالات أخرى مما سبق ،بل تكون بدلا من جملة فقط .وذلك في حالتين:

١- المواقف الانفعالية.

٢- صعوبة النطق للمرض.

المواقف الانفعالية:

نجد الإشارة في هذه المواقف تختصر الوقت ،بحيث تأخذ وقتا أقل من الكلام المنطوق ،وهو ما يتطلبه الموقف الانفعالي من سرعة الاستجابة وذلك نلحظه في الأحاديث الآتية:

---

(١) المرجع السابق (كتاب الطلاق) ١٧٥/٦

١ -"عن محمود بن الربيع الأنصاري أن عتبان بن مالك كان يؤم قومه وهو أعمى ،وإنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم :يا رسول الله صل في بيتي مكانا أتخذه مصلى ،فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:أين أصلي؟ فأشار إلى مكان من البيت ،فصلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم".[1]

هنا نرى موقفا انفعاليا لا يتمكن فيه صاحبه من السيطرة على حالته النفسية التي يمكن أن يتكلم فيها باللغة المنطوقة، ومن ثم يستبدل بها الإشارة حين يسأله الرسول الكريم عن المكان الذي يصلي فيه ،كي يتخذه هذا الرجل مكانا مباركا يصلي هو فيه أيضا بعد ذلك،فيفرح الصحابي ويتعجل الاستجابة ،فيلجأ إلى الإشارة السريعة ،بدلا من جملة:هذا هو المكان الذي أحب أن تصلي فيه.

٢ -"عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لقتلي أحد :أي هؤلاء أكثر أخذا للقرآن ،فإذا أشير له إلى رجل قدمه في اللحد قبل صاحبه..."[2] .

الموقف اللغوي هنا مفعم بالحزن من ناحيتين ،الهزيمة التي حلت بالمسلمين في تلك الغزوة ،وهؤلاء الشهداء الكثيرين ،ولذلك فإن مشاعر الحزن تسيطر على الرسول الكريم وصحابته ،الذين لا يستجيبون للسؤال المنطوق بكلام منطوق مثله،لأن الوقت أسرع ،وهم يريدون أن يواروا هؤلاء الشهداء التراب ،ولذلك يشيرون دون أن ينطقوا .وقد أدت هذه الإشارة دورها بدلا من الكلام المنطوق، ونلاحظ هنا تعبيرات راوي الحديث

---

(١) اصحيح البخاري (كتاب الصلاة) ٥٥/٢ و كتاب الأطعمة ٢٠٢/٦.

(٢) المرجع نفسه (كتاب الخصومات) ٩٢/٣ وكتاب الصلح١٧٠/٣،وكتاب الطلاق١٧٥/٦.

(الصحابي جابر بن عبد الله) حين ربـط الإشـارة ومـا بعـدها بمـورفيم الفاء،الذي يقتضي الترتيب مع التعقيب (فإذا أشير له إلى رجل قدمه فـي اللحد قبل صاحبه).

٣-"عن كعب بن مالك رضي الله عنه أنه كان له علي عبـد الله بـن أبـي حدرد الأسلمي دين فلقيه فلزمه،فتكلما حتى ارتفعت أصـواتهما،فمر بهمـا النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا كعـب ،وأشـار بيـده ،كأنـه يقـول النصف،فأخذ نصف ما عليه وترك نصفا".[١]

نري في هذا الحديث موقفا لغويا وانفعاليـا؛رجلان ،أحـدهما لـه دين،والآخر عليه هذا الدين،والنقاش محتد بينهما ،كل منهـا يطلـب حقـاً لنفسه،أو ما يعتقد أنه حق له،والرسول الكريم يمر بينهما ،والوقت لا يسمح بالكلام ،ولذلك يتعجل صلى الله عليه وسلم إنهاء هـذا النـزاع ،فيسـتخدم الإشارة السريعة ،التي تعني (اقبل منه نصف ما عليه ،واترك له النصـف الآخر لضيق ذات يده).وقد لخصـت هـذه الإشـارة السـريعة كـل هـذه الجمل،لتأتي الاستجابة السريعة ،وتنتهي المشكلة المتنازع عليها.

٤-"عن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل يوم الفـتح مـن أعلى ،علي راحلته مردفا أسامة بن زيد ،ومعه بلال ومعـه عثمـان بـن طلحة،من الحجبة ،حتى أنـاخ فـي المسـجد ،فـأمره أن يـأتي بمفتـاح الكعبة،ففتح ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعه أسـامة وبـلال وعثمان، فمكث فيها نهاراً طويلاً وراء الباب قائماً، فسأله؟ أين صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فأشار إلى المكان الذي صلى فيه ... " [٢] .

---

(١) المرجع السابق (كتاب الصلاة)٦١/٢.

(٢) المرجع نفسه (كتاب المغازي)١٤١/٥ وكتاب الطبقات الكبري٢١٦/٢.

نجد هنا موقفاً انفعالياً ، هو الدهشة والخشوع والإيمان والسرور مما حدث يوم الفتح ، مما عقد لسان بلال ؛ فلم يستطع أن يجيب عبد الله ابن عمر ؛ عندما سأله عن المكان الذي صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ بل استخدم الإشارة السريعة،التي نابت مناب جملة هي(هذا هو المكان الذي صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم).

وقد أدت هذه الإشارة الدلالة التي كانت ستؤديها هذه الجملة السابقة ،لو استخدمها بلال.

صعوبة النطق:

عند عدم التمكن من الكلام أو النطق ،يمكن أن تستخدم الإشارة لتؤدي الدلالة التي يؤديها النطق ،وتكون هذه الصعوبة لمرض ونحوه ،وقد ورد من ذلك في الحديث الشريف ما يلي:

- " عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ... كشف ستر حجرة عائشة فنظر إليهم ،وهم في صفوف الصلاة فظنوا أنه سيصلي بهم فأشار إليهم بيده رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن أتموا صلاتكم ،ثم دخل الحجرة وأرخى الستر".[1]

نرى هنا استبدال الرسول الكريم الإشارة بالنطق ،لأنه كان في مرض الموت ،فأدى بالإشارة ما يمكن أن يؤدي بالكلام .ولذلك فهموا منه تلك الدلالة ،وعبر عنها أنس بقوله:(أن أتموا صلاتكم)،(وأن)،هنا تفسيرية للإشارة وهذه وظيفة طبيعية للإشارة ،حيث قامت الإشارة مقام النطق. [2]

---

(١) المرجع نفسه (كتاب المغازي) ١٤١/٥ وكتاب الطبقات الكبري٢١٦/٢.

(٢) انظر : فتح الباري١٦٩/٢،مع ملاحظة تنزيه الرسول الكريم عن العجز في النطق ،لأنه لم يصح عنه أنه صلي الله عليه وسلم في مرضه اعتقل يوما فلم يتكلم لسان العرب (صمت)٤٧١/٢.

ولذلك يحرص الرسول الكريم على تأكيد دلالة الإشارة ،وفهمها عند العجز من غيره عن الكلام ،حيث "أجاز الإشارة في الفرائض".[1]

أي جعل الإشارة باليد في الوصية والميراث ونحوها مباحة ،يفهمها الحاضرون عند عدم استطاعة النطق.

كما نري أيضا دلالة الإشارة عند العجز عن النطق ،في الحديث التالي:

-"عن أنس أن يهوديا رضّ رأس جارية بين حجرين، قيل : من فعل هذا بك؟ أفلان؟ أفلان؟ حتى سمي اليهودي فأومات برأسها ،فأخذ اليهودي فاعترف فأمر به النبي صلى الله عليه وسلم فرّضَّ رأسه بين حجرين".[2]

فهذه الإيماءة دلت على الموافقة على أن الاسم الذي قيل لها هو اسم من ضربها ،وهي هنا بديل عن النطق ،للعجز عنه.

(١) صحيح البخاري (كتاب الطلاق)١٧٧/٦.

(٢) المرجع نفسه (كتاب الخصومات)٨٩/٣.

دلالة الإعراض :

الإعراض هو إبعاد الوجه إلى ناحية غير مقابلة للمخاطب ،أي عدم استقبال المتكلم بالوجه ،بل انحرافه يمينا أو يسارا .ولهذا الإعراض دلالـة لغوية؛ حيث يقوم مقام الاستنكار أو الرضا عن الشئ مع عـدم المشـاركة فيه،أو التأكد من الحديث الدائر بين اثنين أو الكراهة .وفيما يلـي سـوف نتعرض لهذه الدلالات.

أولا:الاستنكار:

قد يكون للإعراض دلالة استنكار ما يقوله المخاطب ،وذلك يتضـح من الحديث التالي:

-"عن ابن جريج قال:سمعت ابن أبـي مليكـة قـال:حـدثني عقبـة ابـن الحرث...أنه تزوج أم يحيي بنت أبي إهاب قال: فجاءت أمة سـوداء،فقالت قد أرضعتكما ،فذكرت ذلـك النبـي صـلى الله عليـه وسـلم ،فـأعرض عني،قال:فتنحيت فذكرت ذلـك لـه،قال :كيـف وقـد زعمـت أنهـا قـد أرضعتكما؟".(١)

إن هذا الصحابي يعرض علي رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثا حدث له،وهو زواجه امرأة ،علم بعد ذلك أنها أخته من الرضـاعة ،حينمـا أخبرته أمة سوداء بذلك ، فيعرض عنه الرسول الكريم استنكارا لإمسـاكه إياها دون تسريح بعد أن علم أنها أخته .ولم يفهم الصـحابي دلالـة هـذا الإعراض ،ولذلك أعاد ما حدث له مرة أخري ،وهنا يسأله الرسول الكـريم سؤال استنكار ،وضح ما عناه بالإعراض أول مرة.

---

(١) صحيح البخاري (كتاب الشهادات)١٥٣/٣ وكتاب النكاح١٢٦/٦.

ثانيا : الرضا مع عدم المشاركة

ومعني ذلك وجود شئ ما – يراه الرسول الكريم – لكنه لا يشـــارك فيه،كما في الحديث التالي:

"عن عائشة رضي الله عنها قالت:دخل عليَّ رســول الله صــلى الله عليــه وسلم،وعندي جاريتان تغنيان بغناء بعاث ،فاضطجع على الفــراش وحــولَ وجهه ،فدخل أبو بكر ،فانتهرني وقال: مزمارة الشيطان عنــد رســول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقــال: دعهما..."(١) .

نجد هنا أن إعراض الرسول الكريم قد عبرت عنه السيدة عائشــة بقولها (حوّل وجهه)،ودلالة هذا الإعراض هــو عــدم النهــي عــن هــذا الغناء،وعدم المشاركة في سماعه أو الانشغال به، بل هو رضي به لغيــره فقط ترويحا عن زوجه في يوم العيد.

وقد فهمت السيدة عائشة دلالة هذا الإعراض ،فاستمرت جاريتاهــا في الغناء في حضوره صلي الله عليه وسلم بينهن.

ثالثا:التأكد

نجد أحيانا أن الإعراض يدل على التأكد ،كما في الحديث الآتي:

-"عن أبي هريرة قال : أتي رجل من أسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في المسجد،فناداه فقال: يا رسول الله إن الآخــر قــد زنــى – يعنــي نفسه– فأعرض ، عنه فتنحي لشق وجهه الذي أعــرض قبلــه فقــال لــه ذلك،فأعرض عنه ،فتنحي له الرابعة . فلمــا شــهد علــي نفســه أربــع

---

(١) صحيح البخاري (كتاب الجهاد)٢٢٨/٣ وكتاب المناقب١٦١/٤.

شهادات:دعاه فقال:هل بك جنون؟قال:لا . فقال النبي صلي الله عليه وسلم:اذهبوا به فارجموه.وكان قد أحصن ...".[1]

هذا الإعراض الذي تكرر ثلاث مرات ،له وظيفة دلالية هي التأكد من هذا الذي يقوله ذلك الرجل ،ولذلك قال له في الرابعة : هل بك جنون؟ليتأكد من اعتراف الرجل،ومن ثم فقد أقام الحد عليه بعد التأكد مما قاله.

رابعا:التصوير والكراهية:

يمكن أن يحمل الإعراض دلالة الكراهية للشئ الذي يقال،كما يدل علي تصويره .ومن ذلك هذا الحديث:

-" عن عدي بن حاتم قال : ذكر النبي صلى الله عليه وسلم النار فتعوذ منها وأشاح بوجهه ،ثم ذكر النار فتعوذ منها وأشاح بوجهه... ثم قال،اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة. " [2].

فإعراضه بوجهه صلى الله عليه وسلم هنا يدل على كراهية النار ، ولعل قسمات الوجه عند الاعراض توحى بتصوير الشئ المكروه مع ملاحظة أن للتكرار دلالة التأكيد على الكراهية .

---

(١) صحيح البخاري (كتاب الطلاق)١٦٩/٦ وكتاب الحدود ٢٢/٨ ، ٢٤ وكتاب الأحكام١١٢/٨.

(٢) المرجع نفسه (كتاب الأدب) ٧٩/٧ ، ٨٠،وكتاب الرقاق١٩٨/٧.

٦

الفصل السادس

الدلالية الانفعالية في الحديث النبوي

إذا كانت اللغة تعبيرا عما في النفس من مشاعر وأحاسيس وأفكار فإن هذا التعبير لا يتم بالألفاظ فقط ،بل لابد له من بعض الانفعالات التي تظهر في تعبير الوجه ،كالضحك،والبكاء،والحزن،والغضب،والخوف،والتقزز والازدراء،والدهشة ،والاهتمام ،والخجل. وهذه هى الانفعالات الرئيسة،التي لها ثلاثة عناصر ،هى الحالة الفسيولوجية العضوية ،والتعبيرات الوجهية والجسمية، والخبرة الشعورية ،ويمكن أن ننظر إلى تعبيرات الوجه على أنها مظهر خارجي يساعد الآخرين على قراءة الانفعال وفهم دلالته. (١)

وتنقسم هذه الانفعالات قسمين هما:

- التعبيرات الإيجابية ،التي تظهر في الضحك والابتسام.
- التعبيرات السلبية ،التي تظهر في الغضب والحزن. (٢)

ويري علماء النفس أن الضحك يدل على السعادة ،والغضب يدل على الحزن. (٣)

ومن حيث الناحية اللغوية ،نجد دلالات أخرى متنوعة لهذين الانفعالين،فقد يدل الضحك على القبول ،أو الرضا ،أو الاستحسان ،أو التعجب، أو الحياء ،أو السرور .كما يدل الغضب علي الكراهية أوالرفض أوالإنكار أوالتحريم.

وهذه الدلالات التي يدل عليها الغضب تدور في حقل دلالي واحد. (٤)

---

(١) انظر : سيكولوجية السعادة ١٧٧.

(٢) انظر المرجع نفسه٢٠.

(٣) انظر المرجع نفسه٢٠.

(٤) انظر كتابنا الحقول الدلالية.

فالشئ المرفوض محرم ،تكرهه النفوس الصحيحة وتنكره.

وقد فطن الأصفهاني إلى دلالة الضحك المتعددة ،فقال:

" الضحك انبساط الوجه وتكشر الأسنان من سرور النفس....واستعير الضحك للسخرية ...ويستعمل في السرور المجرد... واستعمل للتعجب المجرد تارة...".(١)

وإذا كانت "السعادة انعكاساً لدرجة الرضا عن الحياة ،وتكرار حدوث الانفعالات السارة".(٢) فإن كل مصادر السعادة قد تجمعت في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ،وهذه المصادر كثيرة ،منها نوعية العلاقات الاجتماعية ،وما فيها من مودة وقرب ،وكون الفرد محلا للثقة ،وطمأنينته على نفسه وقيمته. وهذا ما يسمى الدعم الاجتماعي .وكذلك النصح ،وإعطاء المعلومات ،والمشاركة في الحياة المنزلية ،والتنبؤ بسلوك الآخرين ،ووجود الأصدقاء،والزواج. (٣)

فقد كان للرسول الكريم أصحاب (أصدقاء) ذوي علاقة اجتماعية متميزة ،يسودها الود والنصح والمشاركة في الآراء ،واطمئنان الفرد إلى قيمته فيها،كما كانت له بيوت كثيرة ،يشارك فيها في الحياة الزوجية المنزلية.

وهذا المجتمع كان فيه كثير من العلاقات الحميمة التي "يكثر فيها البوح ،بمكنون النفس ،مما يؤدي إلى التقليل من تأثيرات المشقة التي

---

(١) المفردات في غريب القران٢٩٢

(٢) سيكولوجية السعادة ٢٥

(٣) انظر المرجع نفسه ٤ ٤٣

يعانيها الفرد،من احتكاكه اليومي بالأبناء ،ومن الأعمال المنزلية ،ومن المشكلات الاقتصادية ".[1]

ولذلك صار لبعض الانفعالات كالضحك والتبسم والغضب دلالات متعددة ،من خلال تعبيرات الوجه ."فالأفراد الذين يشعرون بالوحدة لا يحبون الآخرين ،ولا يثقون فيهم كثيرا ،ولا ينجحون في توصيل إشارات غير لفظية ، من خلال تعبيرات الوجه ،أو نبرة الصوت ،وهم أقل انبساطا وأكثر عصبية ".[2] أما من يفسر المواقف بأسلوب متميز ،ويواجهها بصورة يرضى عنها ،ويختار بعض المواقف المعينة ويتجنب بعضها الآخر،بحيث يتسق ذلك مع رغباته ،فهو يكون في حالة نفسية جيدة .

وقد كان شعور الرسول الكريم دائما راضيا مطمئنا ،ورغم أن هذا الشعور لا يزداد إلا "عندما تقترب الإنجازات من الطموحات ،ويقل عندما تبتعد عنها"[3] إلا أنه في أحلك اللحظات ،وأشد المواقف عسرا ،كان الرسول الكريم دائما راضيا عن نفسه وعن ربه وعن الآخرين ،وبخاصة في المرحلة المكية قبل الهجرة، ولندلل علي ذلك بموقفين.

الأول:

عندما قفل صلى الله عليه وسلم راجعا من الطائف ،بعد تكذيبهم إياه،وإيذائهم له،وضربهم إياه بالأحجار والطوب ،وجلوسه حزينا عند بستان ،ودعائه المشهور الذي قاله فيه:

(١) سيكولوجية السعادة ٤٧

(٢) المرجع نفسه٤٥

(٣) المرجع نفسه١٩٢

"اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ،وقلة حيلتي ،وهواني على الناس ،يا أرحم الراحمين ...إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي ،ولكن عافيتك هى أوسع لي..لك العتبى حتى ترضى ،ولا حول ولا قوة إلا بك".[1]

<u>الثاني:</u>

عندما كان مع أبي بكر الصديق في الغار ،حين الهجرة .وتكاثر المشركين فوق الغار ،وخوف الصديق أن يراهما أحد فيجهز عليهما . وقد وصف الله تعالى ذلك المشهد بقوله:

"إلا تنصروه فقد نصره الله ،إذا أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين ،إذ هما في الغار ،إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا .فأنزل الله سكينة عليه،وأيده بجنود لم تروها ،وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ،وكلمة الله العليا ،والله عزيز حكيم".[2]

فهنا نلاحظ رضاه التام،وعدم خوفه أو زعزعته صلى الله عليه وسلم ،ولعل ذلك راجع إلى قوله تعالى:

" ولسوف يعطيك ربك فترضي".[3]

وهو في رضاه وفي غضبه كان عظيما ،حيث كان أكثر ضحكه التبسم على غالب أحواله ،وكان لا يضحك إلا في أمر يتعلق بالآخرة فإن كان في أمر الدنيا لم يزد على التبسم. [4]

ولم يكن يضحك بملء فيه ،وعلو صوته ،بل كان ضحكه تبسما بصوت منخفض ،وذلك هو ما روته أم المؤمنين عائشة حين قالت:

---

(١) السيرة النبوية ٢/٤٨

(٢) سورة التوبة٩/٤٠وانظر صحيح البخاري(كتاب فضائل الصحابة)٤/١٩٠وفتح الباري٧/٨-١٢

(٣) سورة الضحي٩٣/٥

(٤) انظر فتح الباري ٤/١٧١ ودلائل النبوة ١/١٨٤ و٢١٤

"ما رأيت النبي صلى الله عليه وسلم مستجمعا قط ضاحكا ،حتى أرى منـــه لهوته ،إنما كان يبتسم".[1]

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يخفي مشاعره وأحاسيسه، بل يظهر آثار ذلك على وجهه .وهو ما وصفته السيدة عائشة بقولها:
"وكان إذا رأى غيما أو ريحا عرف في وجهه ".[2]
ووصفه أيضاً عبد الله بن مسعود في قوله : " سمعت رجلاً قرأ ، وســـمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ خلافها ، فجئت به النبي صـــلى الله عليـــه وسلم ، فأخبرته فعرفت في وجهه الكراهية " [3]· وكذلك وصفه أبو ســـعيد الخدرى حين قال : " كان النبي صلى الله عليه وسلم أشد حياء من العذراء في خدرها، فإذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه في وجهه [4] .وقد كان غضـــبه لله وحده ،أي إن ظلم أو شتم،لم يكن يغضب قط،بل يغضب في امـــور تخـــص الآخرة.

في ضوء ما سبق يمكن أن نتناول هذين الانفعالين ،وهما الضـــحك والغضب ،ومدي ما يحملانه من دلالات ،في الحديث الشريف.

---

[1] صحيح البخاري (كتاب التفسير)٦/٢ ٤وكتاب الأدب٧/٩٥،٩٤
(٢) المرجع نفسه (كتاب التفسير)٦/٢ ٤
[3] صحيح البخاري (كتاب المغازي)٥/٤وكتاب التفسير٥/١٨٧
[4] صحيح البخاري (كتاب المغازي)٥/٤وكتاب التفسير٥/١٨٧

أولا:الضحك

(السرور)

الضحك غريزة انفعالية إنسانية ،وظيفتها التعبير عن السرور،سواء من المتكلم أم المخاطب .ويمكن أن نرى هذه الدلالة من خلال الأحاديث التالية:

١ –"عن ابن مسعود يقول :إن النبي صلى الله عليه وسلم وهو يدعو على المشركين ،فقال (المقداد بن الأسود)لا نقول كما قال قوم موسى :اذهب أنت وربك فقاتلا،ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم أشرق وجهه وسره ".[١]

فإشراق الوجه دال على السرور ،والإشراق هنا هو تعبير الوجه عن هذا السرور وتبسمه .وقد فهم عبد الله بن مسعود هذا الإشراق وعرف دلالته ،ولذلك عبر عنه بجملة (وسره).ومعنى ذلك أن كلام المقداد قد أدخل السرور على رسول الله صلى الله عليه وسلم ،فعرف عبد الله ذلك السرور بإشراق وجه الرسول الكريم.

٢ –"عن كعب بن مالك قال:فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم،وهو يبرق وجهه من السرور ،وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سر استنار وجهه،حتى كأنه قطعة قمر ،وكنا نعرف ذلك منه".[٢]

وهذا الحديث كسابقه في معرفة الصحابة سرور رسول الله صلى الله عليه وسلم ،من خلال إشراق وجهه الكريم .ونجد هنا تعبير السرور

---

[١] صحيح البخاري (كتاب المغازي)٥/٤وكتاب التفسير ١٨٧/٥

[٢] المرجع نفسه(كتاب المناقب)١٦٦/٤وكتاب المغازي٥/١٣٤وودلائل النبوة ١٣٥/١.

بقول كعب(حتى كأنه قطعة قمر)،وذلك يدل على مدى السرور الذي كان الرسول الكريم يعبر عنه ،من خلال وجهه الكريم.

٣-في حديث الإفك عن السيدة عائشة قالت:

"... حتى أنزل عليه ،فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء ،حتى إن ليتحدر منه العرق مثل الجمان ،وهو في يوم شات ،من ثقل القول الذي أنزل عليه.قالت:فَسُرِّيَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضحك ،فكانت أول كلمة تكلم بها أن قال :يا عائشة ،أما الله فقد برأك..." (١)

فهذا موقف عصيب في حق الرسول الكريم وزوجه الكريمة ،وفيه يظهر حزنه صلى الله عليه وسلم ،وفي هذا الحزن وهذه الصعوبة،ينزل الوحي فيبرئ السيدة عائشة، فيدخل السرور على قلب الرسول الكريم فيظهر على وجهه السرور فيضحك.

فوظيفة الضحك هنا هي دلالته علي السرور.

الاستحسان والرضا والقبول:

قد يدل الضحك على الاستحسان والرضا والقبول للكلام المقول أو المخاطب ،وذلك نراه واضحا في الأحاديث التالية:

١-"عن أبي سعيد الخدري أن ناسا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أتوا علي حي من أحياء العرب فلم يقروهم .فبينما هم كذلك إذ لدغ سيد أولئك فقالوا :هل معكم من دواء أو راقٍ ؟ فقالوا :إنكم لم تقرونا ولا نفعل حتى تجعلوا لنا جعلا .فجعلوا لهم قطيعاً من الشاء ،فجعل يقرأ بأم القرآن ويجمع بزاقه ويتفل ،فبرأ،فأتوا بالشاء ،فقالوا لا نأخذه حتى نسأل النبي

---

(١) اصحيح البخاري (كتاب المغازي) ٥٩/٥وكتاب التفسير٩/٦.

صلى الله عليه وسلم .فسألوه فضحك وقال:وما أدراك أنها رقية ؟ خـذوها واضربوا لي بسهم".[1]

فهنا نجد رجالاً يأخذون أجراً على رقيهم مريضـاً ، ولا يسـتحلون هذا الأجر حتى يسألوا الرسول الكريم ،فيقبل منهم ذلك العمل ويحـل لهـم الأجر ،ويبالغ في تأنيسهم،[2]،واستحسان ما فعلوه والرضا به بهذا الضحك الذي أذهب ما في نفوسهم من شك في هذا الشاء .

٢- " عن جرير قال : ما حجبني النبي صـلي الله عليـه وسـلم منـذ أن أسلمت،ولا رآني إلا تبسم في وجهي " .[3]

فالتبسم هنا له دلالة قبول هذا الصحابي ،واستحسان فعله ،والرضا له.وقد فهم جرير تلك الدلالة ،ولذلك يباهي بها،ويزيـدها توضـيحا بـذكر المركب الحرفي (في وجهي)،الذي هو متعلق بالفعل (تبسم)،ليدل علـى أن هذا التبسم كان موجها إلي وجهه.

٣-في حديث الإيلاء شهرا ،يقول عمر بن الخطاب "فقلت لا يغرنك إن كانت جارتك هي أوضأ منك ،وأحب إلى النبي صـلى الله عليـه وسـلم (يريـد عائشة)،فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم ،ثم مكث..فتبسم أخرى ،فجلسـت حين رأيته تبسم".[4]

في هذا الحديث يذهب عمر للرسول الكريم ،في مكان اعتزاله مـن نسائه ،ويحكي له ما دار بينه وبين حفصة ابنته ،ويخبرها أن عائشة أحـب

---

[1] صحيح البخاري (كتاب الطب)٧/٢٢،٢٣ .

[2] انظر فتح الباري٤/٤٥٧.

[3] صحيح البخاري (كتاب الأدب)٧/٩٤.

[4] المرجع نفسه (كتاب المظالم)٣/١٠٥.

وأوضأ منها عند رسول الله ،فيتبسم صلى الله عليه وسلم ،لأن الكلام لاقى قبولا عنده ،ولذلك يبتسم مرة أخرى ،دلالة علي استحسان قول عمر وقبوله ورضاه.وبعد هذه المحاورة بينه صلى الله عليه وسلم وبين عمر ،يعود الرسول الكريم إلى أزواجه ،وينتهي الإيلاء بعد تسعة وعشرين يوما. [1]

٤-في حديث عروة بن الزبير "فقدم أبو عبيدة بمال من البحرين ،فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة ،فوافوا صلاة الفجر مع النبي صلى الله عليه وسلم فلما انصرف تعرضوا له ،فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآهم ،ثم قال :أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشئ ،قالوا :أجل يا رسول الله .قال : فأبشروا". [2]

التبسم هنا لاستحسان قدوم أبي عبيدة من البحرين ،ورضا لهؤلاء الذين تعرضوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم طالبين بعض ما يكفيهم من هذا المال ،ولذلك يسألهم الرسول الكريم بعد التبسم ؛هل سمعوا بقدوم أبي عبيدة ؟ ثم يبشرهم بإعطائهم ما يريدون من هذا المال.

٥-في حديث أنس بن مالك ،قبيل موت النبي صلى الله عليه وسلم ،حين "كشف ستر حجرة عائشة ،فنظر إليهم ،وهم في صفوف الصلاة ،ثم تبسم يضحك ،فنكص أبو بكر على عقبه ليصل الصف،وظن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد أن يخرج ،وَهَمَّ المسلمون أن يفتتنوا في صلاتهم فرحا برسول الله صلى الله عليه وسلم ". [3]

---

[1] انظر فتح الباري ٣٧٤/٩-٣٨١.

[2] صحيح البخاري (كتاب المغازي) ١٨/٥، ١٩، وكتاب الرقاق ١٧٢/٧، ١٧٣.

[3] المرجع نفسه (كتاب المغازي) ١٤١/٥.

في الحديث يحكي أنس بن مالك عن أواخر حياة الرسول الكريم في مرضه الأخير ،حين كشف ستر حجرة عائشة ؛ ليطمئن على المسلمين في صلاتهم، ثم لما اطمئن عليهم في الصلاة استبشر وتبسم استحسانا لمحافظتهم على الصلاة ورضا لما يفعلون ،وقبولا له ،ولذلك أرخى الستر ودخل بعد أن رآهم.

التعجب:

قد يدل الضحك على التعجب ،وذلك هو ما نراه من خلال عرضنا للأحاديث التالية:

١- " عن أنس بن مالك :كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل على أم حرام بنت ملحان فتطعمه ،فدخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأطعمته وجعلت تفلى رأسه، فنام رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم استيقظ وهو يضحك .قالت : فقلت : وما يضحكك يا رسول الله؟ قال : ناس من أمتي عرضوا عليَّ غزاة في سبيل الله ،يركبون هذا البحر ملوكا على الأسرَّة ،أو مثل الملوك على الأسرة".[1]

إن التعجب يبدو هنا ظاهرا من حال أولئك الغزاة في سبيل الله،الذين يخرجون من الصحراء إلى البحر ،وبدلا من الغبار في الصحراء،يصيرون ملوكا على الأسرة أو مثل الملوك .ولذلك يتكرر الضحك في هذا الحديث مرتين .وتشارك أم حرام رسول الله في تعجبه ،فتطلب منه أن يدعو الله ليجعلها منهم فيدعو لها،ويستجيب الله له ،وتغزو مع هؤلاء الذين هم كالملوك وتستشهد في أولى هذه الغزوات.

---

[1] المرجع السابق (كتاب الجهاد)٣/٢٠١،٢٢١،٢٢٥وكتاب الإستئذان٧/١٤٠،١٤١ وبإختلاف يسير في كتاب الجهاد٣/٢٠٣.

٢-"عن أنس بن مالك قال:كنت أمشي مع النبي صلى الله عليه وسلم،فأدركه أعرابي فجذبه جذبة شديدة ،حتى نظرت إلى صفحة عاتق النبي صلى الله عليه وسلم،قد أثرت به حاشية الرداء من شدة جذبته ،ثم قال،مر لي من مال الله الذي عندك .فالتفت إليه فضحك ثم أمر له بعطاء".[١]

إن الموقف هنا يدعو للعجب ،فالرجل يجذب النبي جذبة شديدة،ويغلظ له في القول ،ومع ذلك يريد أن يأخذ بعض المال .لذلك يضحك الرسول صلى الله عليه وسلم تعجباً من هذا السلوك المتناقض ،الذي يبدأ بالعنف ومع ذلك يطلب ما يريد ،دون تلطف في السؤال.

٣-"عن سعيد بن أبي وقاص قال:استأذن عمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعنده نساء من قريش يكلمنه ويستكثرنه عالية أصواتهن.فلما استأذن عمر قمن يبتدرن الحجاب .فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم،ورسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك .فقال عمر:أضحك الله سنك يا رسول الله .قال : عجبت من هؤلاء اللاتي كن عندي ،فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب..".[٢]

لعل دلالة الضحك هنا مفهومة من الحديث – دون شرح-حيث إن الرسول الكريم قد شرح دلالته ،حينما دخل عليه عمر ،وسأله عن سبب الضحك كي يفهم مدلوله .فقال له:(عجبت من هؤلاء..).وذلك لتناقض موقفهن، من السؤال والإكثار في الكلام ،وعلو الصوت ،ثم انتهاء ذلك

---

[١]صحيح البخاري (كتاب فرض الخمس)٤/٦٠وكتاب الأدب٧/٩٤.

[٢] المرجع نفسه (كتاب المناقب)٤/١٩٩وكتاب بدء الخلق ٤/٩٥،٩٦وكتاب الأدب٧/٩٣.

كله،والتحول إلي مكان آخر،للبس الحجاب والحياء من دخول عمر رضـي الله عنه عليهن .

٤-"عن أنس قال:أصاب أهل المدينة قحط ،علي عهد رسول الله صـلى الله عليه وسلم ،فبينما هو يخطب يوم الجمعة إذ قام رجل فقال يا رسـول الله هلكت الكراع ، هلكت الشاء ،فادعوا الله يسقينا فمد يديه ودعا...فلم نـزل نمطر إلى الجمعة الأخرى ،فقام إليه ذلك الرجل أو غيره ،فقال :يا رسـول الله تهدمت البيـوت ،فـادع الله يحبسـه ،فتبسـم ثـم قال،حوالينـا ولا علينا.فنظرت إلى السحاب تصدع حول المدينة كأنه إكليل".[1]

في هذا الحديث نري قحطا يصيب المدينة ،فيقوم رجل ويذكر ذلـك للنبي صلى الله عليه وسلم ،ويرجوه أن يدعو الله بالسحاب والمطر.فيدعو الرسول له ،فيستجيب الله،وينزل المطر غزيرا .ثم يعود الرجل –أو غيره- ليطلب إيقاف المطر .فيضحك الرسول الكريم تعجبا من اختلاف حالة الرجل فبعد أن طلب المطر ،استغاث منه وطلب إيقافه.

٥-"عـن أبـي هريـرة قـال:أتـي رجـل النبـي صـلى الله عليـه وسلم،فقال،هلكت،وقعت علي أهلي في رمضان .قال :أعتق رقبة .قال:ليس لي ،قال: فصم شهرين متتـابعين .قـال:لا أسـتطيع،قال: فـأطعم سـتين مسكينا،قال:لا أجد ،فأتي بعرق فيه تمر .فقال :أين السائل؟

تصدق بها.قال:على أفقر مني؟والله ما بين لابتيها أهل بيت أفقر منا.فضحك النبي صلي الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه ،قال،فأنتم إذا ".[2]

---

[1] صحيح البخاري (كتاب المناقب)١٧٣/٤وكتاب الادب٩٥/٧.

[2] المرجع نفسه (كتاب الأدب)٩٤/٧،١١١،١١٢وكتاب الإيمان٢٣٦/٧.

الضحك هنا للتعجب من حال الرجل وتباين موقفه"حيث جاء خائفا على نفسه راغبا في فدائها مهما أمكن .فلما وجد الرخصة طمع في أن يأكل ما أعطيه من الكفارة .وقيل ضحك من حال الرجل في مقاطع كلامه،وحسن تأتيه وتلفظه في الخطاب ،وحسن توسله في توصله إلى مقصوده ".[1]

التعظيم:

يدل الضحك علي التعظيم،وذلك في الحديث التالي:

- في حديث آخر أهل الجنة دخولا عن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم ،أن الله تعالى يقول لذلك الرجل:"اذهب فادخل الجنة ،فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها ،أو إن لك مثل عشرة أمثال الدنيا .فيقول :تسخر مني أو تضحك مني وأنت الملك؟(ثم يحكي عبد الله) فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه ،وكان يقال :ذلك أدنى أهل الجنة منزلا".[2]

يضحك رسول الله في هذا الحديث تعظيما لفضل الله الواسع ورحمته ومغفرته ،إذ إن العبد هو آخر من يدخل الجنة ،ومع ذلك يكون له عشرة أمثال الدنيا .وهنا نجد الضحك بكمية أكبر ،لأنه يختص بأمر من أمور الآخرة.[3]

---

[1] فتح الباري٤/١٧١.

[2] صحيح البخاري (كتاب الرقاق)٧/٢٠٤.

[3] راجع ص ١١٦ من هذا الكتاب.

التصديق:

يدل الضحك علي تصديق كلام المخاطب ،كما في الحديث التالي:

-"عن عبد الله قال: جاء حبر من الأحبار إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال :يا محمد ،إنا نجد أن الله يجعل السموات على إصبع ،والأرض على إصبع ،والشجر على إصبع ،والماء والثرى على إصبع ،وسائر الخلائق على إصبع، فيقول :أنا الملك .فضحك النبي صلى الله عليه وسلم،حتى بدت نواجذه تصديقا لقول الحبر ،ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم :"وما قدروا الله حق قدره".[1] .

نجد هذا الحبر يخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأشياء غيبية فيضحك لها الرسول الكريم ، ويحمل هذا الضحك دلالة التصديق ،وقد فهم عبد الله رواى الحديث هذه الدلالة ، ولذلك وصف الضحك وعلله بأنه (تصديقا لقول الحبر) .

ويلاحظ هنا- كما فى الحديث السابق - أن هذا الضحك لأمر من أمور الآخرة ، ولذلك يزداد ضحك النبى حتى تبدو نواجذه ، أما فى الأمور الدنيوية فلا يزيد ضحكه على التبسم .

الحياء:

يدل الضحك على الحياء ،وذلك كما فى الحديث الشريف التالى:

" عن أم سلمة أن أم سليم قالت : يا رسول الله ، إن الله لا يستحى من الحق ، فهل على المرأة الغسل إذا احتلمت ؟ قال إذا رأت الماء،

---

[1] صحيح البخاري(كتاب التفسير) ٦/٣٣وكتاب التوحيد٨/١٧٤،١٨٧،٢٠٢والآية من سورة الزمر٣٩/٦٧ وتمامها:"وما قدروا الله حق قدره،والأرض جميعا قبضته يوم القيامة ،والسموات مطويات بيمينه ،سبحانه وتعالي عما يشركون".

فضحكت أم سلمة ، فقالت: تحتلم المرأة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليـــه وسلم فبما[1] يشبه الولد " [2] .

ضحك أم سلمة هنا يدل على الحياء ، ولذلك نجد أن أم سليم تمهـــد لسؤالها هذا بقولها (إن الله لا يستحى من الحق) كأنها تحاول أن تخرج من دائرة الحياء- لحظـــة إلقائهـــا الســـؤال ، والحياء هنا مشـــوب بالشـــك. ولذلك تعيد سؤالها (تحتلم المرأة)؟ [3].

الغضب :

يحمل الضحك دلالة الغضب ، وذلك فى حديث الثلاثة الذين خلفـــوا فى غزوة تبوك – عن رسول الله صلى الله عليه وســـلم – وهـــو حـــديث طويل، نجتزئ منه ما يؤدى الغرض .

" عن كعب بن مالك ... فجئته فلمـــا ســـلمت عليـــه تبســـم تبســـم المغضب، ثم قال : تعالى، فجئت أمشى حتى جلست بين يديه ، فقال لـــى : ما خلفك ؟ ألم تكن ابتعت ظهرك ؟ .. [4] .

نجد هنا واحدا من الثلاثة الذين خلفوا عن رســـول الله صـــلى الله عليه وسلم فى تلك الغزوة – وهو كعب بن مالك – يأتي معتذرا ، فتبسم له الرسول صلى الله عليه وسلم تبسما يحمل دلالة الغضب، وهو ما فهمه ذلك الصحابى عندما قال : (تبسم المغضب) .

---

[1] هكذا فى الأصل (فبما) بإثبات الألف والصحيح حذفها ، لأن ما أداة استفهام مسبوقة بأداة جر فتصير (فبم) .

[2] صحيح البخارى (كتاب الأنبياء) ١٠٢/٤ ، وكتاب الأدب ٩٤/٧

[3] هذه الجملة الخبرية تحمل دلالة الاستفهام ، وذلك مفهوم من السياق فى الكتابة ؛ أما فى حالة النطق ، فالتنغيم يقوم مقام أداة الاستفهام

[4] صحصح البخارى (كتاب المغازى) ١٣١/٥ ، والحديث من ١٣٠-١٣٥

وهنا نجد مفارقة ؛ حيث عبر رسول الله عن الغضب ، وهو شعور سلبى ، بالتبسم الذى هو شعور إيجابى .

ثانيا : الغضب

إذا كان الغضب غريزة إنسانية فليس لها إلا دلالة واحدة ، هى الإنكار والكراهية والتحريم والرفض، وكلها ألفاظ تدور فى حقل دلالى واحد. وفى الحديث الشريف ، لم أجد فيما تعرضت له من أحاديث ما يدل على غير ذلك .

وفيما يلى بعض الأحاديث الدالة على هذه الدلالة :

١ - "عن على بن أبى طالب قال : كسانى النبى صلى الله عليه وسلم حلة سيراء ، فخرجت فيها فرأيت الغضب فى وجهه فشققتها بين نسائى"[١].

فالغضب هنا كراهة لتلك الحلة التى لبسها علىّ ،ولذلك فهم علىّ دلالة هذا الغضب ، فجعلها بين نسائه ولم يلبسها بعد ذلك .

٢ - " عن أبى موسى قال : سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن أشياء كرهها فلما أكثر عليه غضب ، ثم قال للناس : سلونى عما شئتم. قال رجل : من أبى ؟ قال أبوك حذافة ، فقام آخر فقال : من أبى يا رسول الله ؟ قال : أبو سالم مولى شيبة ، فلما رأى عمر ما فى وجهه قال : يا رسول الله إنا نتوب إلى الله عز وجل " [٢] .

لعل دلالة الغضب هنا تظهر جلية فى هذا الحديث ، فى تعبير أبى موسى (عن أشياء كرهها)، فلما زادت هذه الأسئلة كرهها ،فعبَّر عن تلك

---

[١] صحيح البخارى (كتاب الهبة) ١٤١/٣ وكتابة النفقة ١٩٤/٦ وكتاب اللباس ٤٦/٧

[٢] المرجع نفسه (كتاب العلم) ٣٢/١ وكتاب الصلاة ١٣٦/٢

الكراهية بالغضب ، الذى عرف دلالته عمر ، فأعلن أنـــه هـــو والســـائلين يتوبون إلى الله عز وجل ، مما يكرهه رسول الله صـــلى الله عليـــه وســـلم وينكره عليهم .

٣- " عن زيد بن خالد الجهنى أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليـــه وسلم عن اللقطة ، قال عرِّفها سنة ، ثم اعرف وكاءها وعقاصـــها ثـــم استنفق بها ، فإن جاء ربها فأدها إليه ، قالوا يا رسول الله : فضـــالة الغنم ؟ قال : خذها فإنما هى لك أو لأخيك أو للذئب ، قال يـــا رســـول الله : فضالة الإبل ؟ قال : فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى احمرت وجنتاه، أو احمر وجهه ، ثم قال : مالك ولها ؟ معها حـــذاؤها وسقاؤها حتى يلقاها ربها " [١] .

سئل الرسول الكريم هنا عن اللقطة فأجـــاب ، عـــن ضـــالة الغـــنم فأجاب، وفى كلتيهما أباح تعرفهما والاستنفاع بهما إن لم يجد صـــاحبهما ، فزاد السائل سؤالا ثالثا عن ضالة الإبل ، وهنا غضـــب رســـول الله حتـــى احمرت وجنتاه لتحريم أخذها ،حيث لا يخاف عليها جوع أو ذئـــب ، وقـــد فطن إلى دلالة هذا الغضب ابن حجر العسقلانى ، حين قال " فغضب إما لأنه كان نهى قبل ذلك عن التقاطها ،و إما لأن السائل قصر فى فهمه " [٢] .

٤- " عن عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما أن رجلا من الأنصار خاصـــم الزبير عند النبى صلى الله عليه وسلم ، فى شراج الحرة التى يســـقون بها النخل ، فقال الأنصارى : سرِّح الماء يمر، فأبى عليه ، فاختصـــما

---

[١] صحيح البخارى (كتاب اللفظة) ٩٥/٣ وكتاب الطلاق ١٧٤/١٦ وكتاب الأدب ٩٨،٩٩/٧ وبلفظ (فتمعر وجهه) فى كتاب اللقطة ٩٦/٣

[٢] فتح البارى ١٨٧/٥

عند النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للزبير: اسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جـــارك ، فغضـــب الأنصـــارى فقال: أن كان ابن عمتك ؟ فتلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال : اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر... " [١].

الغضب هنا يحمل دلالة الإنكار ، حيث لـــم يـــرض الأنصـــارى أن يرضخ لحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذى أمـــر فيـــه الزبيـــر أن يسقى ، ثم يرسل الماء له ، فأنكر عليه الرسول الكريم عدم رضـــاه بـــذلك الحكم فغضب ويعلل ابن حجر هذا الغضب بأنه نتيجة لاعتراض الأنصـــارى على حكم رسول الله [٢] .

ففى كل الأحاديث السابقة نجد أن دلالة الغضب تتراوح فـــى حقـــل دلالى واحد هو التحريم والكراهة والإنكار ، ولعل مجمل القول فى الغضـــب ودلالته هو أن مجرد غضب النبى صلى الله عليه وسلم من الشئ دال علـــى تحريمه أو كراهيته ، بخلاف غيره[٣] .

---

[١] صحيح البخارى (كتاب المساقاة) ٣/٧٦،٧٧ وكتاب الصلح ٣/١٧١ وكتاب التفسير ٥/١٨١،١٨٠

[٢] انظر فتح البارى ٥/٣٧

[٣] المرجع نفسه ٥/١٨٧

7

الفصل السابع

الدلالة السلبية في الحديث النبوي (الصمت)

الصمت هو إطالة السكوت ، وهو الإنصات والإصغاء عكس الكلام[1] فإذا تكلم الإنسان ، وأنهى كلامه صمت .

ومع ذلك فلا يمكن اعتبار الصمت نهاية للفكرة ، أو انتهاء للكلام الذى يعبر عن الفكرة ، بل هذه إحدى وظائفه التى سنتناولها بعد قليل . فالصمت انتقال ظاهرى من حالة لغوية إلى أخرى ، مع وجود الفكرة نفسها أو تغيرها ، وذلك لوجود موقف نفسى معين ، أثَّر فى المتكلم فجعله ينهى حديثه ظاهريا ؛ ليفكر فيما قال ، أو يحاول إدراك انعكاس كلامه على محدثه أو لاستزادة السامع له . كما يدل الصمت على الخوف أحيانا ، أو قبول الكلام أو رفضه ، إلى غير ذلك من معان لا تظهر فى الكلام المتصل.

لذلك يأمرنا الله سبحانه وتعالى بالصمت عند سماع القرآن حيث يقول :

" وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون " [2] .

وذلك لأن الاستماع والصمت والسكوت يحصل بها الفهم [3] .وكذلك يأمر سبحانه موسى عليه السلام :

" فاستمع لما يوحى " [4] .

حتى يلفت انتباهه ، فيستحضر كل حواسه لاستقبال أمر الله تعالى له ، وبذلك ينال الفهم عن الله تعالى [5] .

---

[1] انظر : لسان العرب (صمت) ٢/ ٤٧١،٤٧٢

[2] سورة الأعراف ٧/٢٠٤

[3] انظر : تفسير القرطبى ٧/٣٥٤

[4] سورة طه ٢٠/١٣

[5] انظر تفسير القرطبى ١١/٧٦

ويمكن أن نسمى الصمت الدلالة السلبية التى ينعدم فيها الكلام ولم يتعرض أحد من اللغويين العرب ، القدماء أو المحدثين ، لدراسة دلالة الصمت . على حين نجد أن علماء أصول الفقه قد درسوها دراسة وافية ، وقسموها ، وبينوا كيفية الاستدلال على الأحكام من خلالها ومنهم الحنفية والشافعية .

فالحنفية سموها بيان الضرورة ، وقسموها أربعة أقسام هى :

١- أن يلزم عن المذكور مسكوت عنه ، مثل قوله تعالى : " فإن لم يكن له ولد ، وورثه أبواه فلأمه الثلث " [١] ،فالمسكوت عنه هو الثلثان للأب .

٢- دلالة حال الساكت الذى وظيفته البيان مطلقا ، كسكوته صلى الله عليه وسلم عند أمر يشاهده من قول أو فعل ، فإنه يدل على الإذن فيه إذا لم ينكره .

٣- اعتبار سكوت الساكت دلالة كالنطق لدفع التقرير : كدلالة سكوت شخص ما عند رؤية محجوره يبيع ولا ينهاه على إذنه له في التصرف.

٤- دلالة السكوت على تعيين معدود تعورف حذفه ضرورة طول الكلام بذكره [٢] .

والشافعية سموها دلالة المفهوم ، وعرفوها بقولهم :

" هو دلالة اللفظ لا فى محل النطق على ثبوت حكم ما؛ ذُكِر لما سكت عنه " أو على نفى الحكم عنه "[١] فثبوت الحكم يسمى الموافقة ونفيه

---

[١] سورة النساء ١١/٤

[٢] أصول الفقه ١٢٢

هو المخالفة ، وقسموها خمسة أقسام هى مفهوم الصفة والشرط والغاية والعدد واللقب [٢] .

وقد فهم ابن حجر العسقلانى دلالة الصمت في بعض الأحيان فقال: " ليس لكل كلام جواب ، بل السكوت قد يكون جوابا لبعض الكلام " [٣] .

وهذه الدلالات المتعددة للصمت لا تفهم وحدها مجردة ، فهي ليست لمجرد السكوت ، وإنما هى للقرائن التى حفت بالسكوت [٤] .

وفى الحديث العادى أو الكلام اليومى بين الناس يمكن أن نحدد للصمت دلالات متعددة ، منها :

١ - الموافقة : كما فى صمت الابن مع أبيه .

٢ - المخالفة : كما فى حديث من يقف على جملة ما ، وهو يقصد عكسها .

٣ - الرضا والقبول : كما فى صمت الفتاة حين يعرض الزواج عليها .

٤ - الحياء : كما فى صمت الصغير حين يجلس مع الكبار .

٥ - التعليم : كما فى صمت التلاميذ مع معلمهم .

٦ - التفكير : كما فى صمت العباد والمتصوفة والمحبين .

٧ - الاحترام : كما فى صمت الجنود أثناء تحية العلم والسلام الوطنى .

٨ - الخوف : كما فى صمت المجرم قبيل عقابه .

وللصمت بعد ذلك دلالة أساسية ، وهى انتهاء الكلام أو انتهاء الفكرة التى صيغت فى كلام ما .

---

[١] أصول الفقه لأبى زهرة ١١٧-١٢٢ وأصول الدين ٢٢٣-٢٢٤ وحصول المأمول ١١٩-١٢٠ وأصول الفقه ١١٨-١١٩

[٢] انظر المرجع نفسه ١٢٢ وأصول الفقه لأبى زهرة ١٧٧-١٢٢ وحصول المأمول ١٢٣

[٣] فتح البارى ٥٨٣/٨

[٤] اصول الفقه ١١٩

وهناك صمت قليل الكمية الزمنية جدا بين الكلام المتصل ، وهو نوعان :

١- **الوقف** : للاستراحة بين الكلام والجمل للتنفس .

٢- **السكت** : وهو بدون تنفس ، لإظهار فونيم ما ، كالهمزة .

وفترة الوقف الزمنية أطول من السكت [١] .

وإذا كان الصمت بهذه الأهمية ، بحيث يعول عليه في استنباط بعض الأحكام الفقهية ، فهو في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ذو دلالات معينة ، ويكفي أنه جزء من السنة[٢] التي هي : " ما أثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير [٣] .

فالتقرير هنا هو صمت .

ويروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه : " كان طويل الصمت " [٤] .

وفي الصفحات التالية نتعرض لدراسة دلالة الصمت في الحديث الشريف ، وتنوعها بين الموافقة ، والمخالفة ، والرضا ، والحياء ، إلى غير ذلك مما يمكن أن نستنتجه .

- **الاسترسال في الفكر :**

يحتمل الصمت دلالة الاسترسال في فكرة واحدة ، وعدم التحول إلى غيرها ، وتتضح هذه الدلالة عندما يخاطب المتكلم أحدا ما ، ويحاول آخر

---

[١] انظر : تفصيل ذلك في كتابنا : الوقف والابتداء .

[٢] انظر أصول الفقه ١١٩

[٣] انظر أصول الفقه لأبي زهرة ٨٢ وحصول المأمول ٣٨

[٤] الطبقات الكبرى ٣٧٢/١ ودلائل النبوة ٢٤١/١

أن يتدخل فى الحديث ليحول المعنى إليه ، ونلاحظ ذلك من خلال الحـديث التالى :

" عن أبى هريرة قال : بينما النبى صلى الله عليه وسلم فى مجلس يحدث القوم ، جاءه أعرابى فقال : متى الساعة ؟ فمضى رسول الله صـلى الله عليه وسلم يحدث ، فقال بعض القوم : سمع ما قال فكره ما قال ، وقال بعضهم : بل لم يسمع ، حتى إذا قضى حديثه قال : أين ؟ أراه السائل عـن الساعة ، قال : ها أنا يا رسول الله ،قال : فإذا ضـيعت الأمانـة فـانتظر الساعة قال : كيف إضاعتها ؟ قال : إذا وسد الأمر إلى غير أهله فـانتظر الساعة " [1].

إن السائل هنا يعترض بكلامه حديث رسول الله صـلى الله عليـه وسلم مع بعض أصحابه وبسؤال عن الساعة فلا يجيبه الرسول الكـريم ، ويستمر فى حديثه فعدم إجابته هنا بمثابة الصمت عن إجابته ، وذلك حتى " يكمل الحديث الذى هو فيه ، أو أخر جوابه ليوحى إليه به " [2] ، أى إنه لم يرد أن يقطع حديثه وفكرته التى يتكلم فيها ،ويعود ليجيب السائل ، ثـم يعود لحديثه الأول مرة أخرى ، ولم يفهم الجالسون آنذاك دلالة الصمت عن جواب السائل ، ولذلك قال بعضهم : إن دلالته هى كـره مـا سـمعه مـن السائل، وقال آخرون : إنه لم يسمع .

---

[1] صحيح البخارى (كتاب العلم) ٢١/١ وكتاب الفتن ٩١/٨ وكتاب التوحيد ١٨٥/٨ ، ١٨٦

[2] فتح البارى ١٤٣/١

الإفهام:

نجد تلك الدلالة من خلال الحديثين التاليين :

- **" عن جرير قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى حجة الوداع استنصت الناس ، ثم قال ، لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض "** [1] .

فجملة (استنصت الناس) : دلت على طلب الصمت من هؤلاء الناس المجتمعين فى ذلك الموقف ، حتى يفهموا ما يلقى عليهم ، ولو أنه صلى الله عليه وسلم ألقى عليهم ما يريد ، دون إنصات منهم لذهبت كلماته سدى، ما سمعها أحد .

وقد فهم الصحابة دلالة الصمت هنا، فطبقوها تطبيقا عمليا ، وكانوا يسكتون ولا يجيبون ، عندما يريدون التعلم ؛ ليفهموا عن الرسول الكريم ما يقول ، ونلاحظ ذلك فى الحديث التالى :

" عن أبى بكر ، ذكر النبى صلى الله وسلم قعد على بعيره وأمسك إنسان بخطامه أو بزمامه ، ثم قال : أى يوم هذا ؟ فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، فقال : أليس يوم النحر ؟ قلنا : بلى ، قال : فأى **شهر هذا ؟ فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، فقال : أليس يوم الحجة ؟ قلنا : بلى ، قال : فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا "** [2] .

---

(1) صحيح البخارى (كتاب الفتن) ٩١/٨

(2) صحيح البخارى (كتاب العلم) ٢٤/١ وكتاب الحج ١٩١/٢، ١٩٢ وكتاب الأضاحى ٢٣٥/٦ وكتاب الأدب ٨٣/٧ ، ٨٤ والطبقات الكبرى ١٨٦/٢

واضح من الحديث أن الصحابة هنا قد فهموا أن للصمت دلالة الإفهام والتعلم ، ولذلك يصمتون عندما يسألهم رسول الله عن اسم يوم النحر، ويظنون أنه سوف يسميه بغير اسمه ، وكذلك عن شهر ذى الحجة ، ومع أنهم يعرفون اسم اليوم واسم الشهر إلا أنهم لا يجيبون ظنا منهم أن الاسم قد تغير .

وجود الوحي اثناء السؤال :

قد يسأل رسول الله صلي الله عليه وسلم ولا يجيب بل يصمت؛ وذلك لانشغاله بنزول الوحي عليه . نجد ذلك في الحديثين التاليين :

" عن أبي سعيد الخدري يحدث أن النبي صلى الله عليه وسلم جلس ذات يوم على المنبر وجلسنا حوله فقال : إني مما أخاف عليكم من بعدى ما يفتح الله عليكم من زهرة الدنيا وزينتها . فقال رجل يا رسول الله : أو يأتي الخير بالشر ؟ فسكت النبي صلي الله عليه وسلم . فقيل له : ما شأنك تكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يكلمك ، فرأينا أنه ينزل عليه،قال: فمسح عنه الرخضاء فقال : أين السائل ؟ وكأنه حمده فقال : إنه لا يأتي الخير بالشر وإن مما ينبت الربيع يقتل حبطا أو يلم إلا آكلة الخضرة...).[1]

في هذا الحديث يخوف الرسول الكريم من كثرة المال وزخرف الدنيا فيتعجب أحد السامعين ويسأل : هل يأتى الخير بالشر ؟ فيسكت الرسول الكريم ولا يجيب . وسبب هذا الصمت هو نزل الوحي في تلك اللحظة، وقد

---

[1] صحيح النخاري كتاب الزكاة ١٢٧/٢ وكتاب الجهاد ٢١٣/٣، ٢١٤ والمغازي ١٢٦/٥ ، ١٢٧ والرقاق ١٧٣/٧ وباقي الحديث هو (أكلت حتي إذا امتدت خاصرتها استقبلت الشمس فاجترت وثلطت وبالت ثم عادت فأكلت وإن هذا المال حلوة من أخذ بحقه ووضعه في حقه فنعم المعونة هو ومن أخذ بغير حق كان يأكل ولا يشبع) .

عرف الصحابة ذلك ، فعاتبوا السائل لعدم رد الرسول الكريم عليــه ، ثــم سري عن النبي فأجاب السائل بما أراد . فالصمت هنا له دلالة وهى وجود الجواب الذي يوحي الله إليه به ، إذ إنه " وما ينطق عن الهوى إن هــو إلا وحي يوحي." [1]. – " عن زيد بن أسلم عن أبيه أن رسول الله صــلى الله عليه وسلم كان يسير فى بعض أسفاره ، وكان عمر بن الخطاب يسير معه ليلا فسأله عمر بن الخطاب عن شئ ، فلم يجبه رسول الله صلى الله عليــه وسلم ، ثم سأله فلم يجبه ، وقال عمر بن الخطاب : ثكلتك أمك يــا عمــر نزرت رسول الله صلى الله وسلم ثلاث مرات كل ذلك لا يجيبك .. فقلــت : لقد خشيت أن يكون نزل فىّ قرآن وجئت رسول الله صلى الله عليه وســلم فسلمت ، فقال : لقد أنزلت على الليلة سورة لهى أحب إلى مما طلعت عليه الشمس ، ثم قرأ : إنا فتحنا لك فتحا مبينا " [2] .

نجد فى هذا الحديث أن عمر بن الخطاب يسأل الرسول الكريم ثلاث مرات ، ولا يجيبه رسول الله ولذلك خشى عمر ، وحدث نفســه أن يكــون هناك شئ ما لديه فينزل فيه قرآن ، فلما أراد معرفة حقيقة الصمت ســلمً على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره ، أنه قد أوحيت إليه آيات من سورة الفتح ، فالصمت هنا لانشغاله بالوحى ، رغم أننا لا نعرف مــا هــو السؤال الذى سأله عمر ولا الجواب الذى أجاب به رســول الله صــلى الله عليه وسلم .

---

[1] سورة النجم ٥٣/٣-٤

[2] صحيح البخارى (كتاب المغازى) ٥/٦٧،٦٦ والتفسير ٦/٤٣ ، ٤٤ ، ١٠٤ ، ١٠٥ والآية المذكورة فى الحديث هى أول سورة الفتح ٤٨/١

ويعقب ابن حجر العسقلاني على هذا الصمت ، فيقول : " يستفاد منه أنه ليس لكل كلام جواب ، بل السكوت قد يكون جوابا لبعض الكلام، وتكرير عمر السؤال لكونه خشى أن النبى صلى الله عيه وسلم لم يسمعه ، أو لأن الأمر الذى كان يسأل عنه كان مهما عنده ... ولعل النبى صلى الله عليه وسلم أجابه بعد ذلك ، وإنما ترك إجابته لشغله بما كان فيه من نزول الوحى " [1] .

انتظار الوحي :

قد يُسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يجيب ، وذلك لعدم وجود إجابة فى تلك اللحظة ، ومن ذلك ما يلى من الأحاديث :

" أن يعلى قال لعمر رضى الله عنه : أرنى النبى صلى الله عليه وسلم حين يوحى إليه قال : فبينما النبى صلى الله عليه وسلم بالجعرانية، ومعه نفر من أصحابه ، جاءه رجل فقال يا رسول الله : كيف ترى فى رجل أحرم بعمرة وهو متضمخ بطيب ؟ فسكت النبى صلى الله عليه وسلم ساعة، فجاءه الوحى ، فأشار عمر رضى الله عنه إلى يعلى .. ثم سُرّى عنه فقال: أين الذي سأل عن العمرة .." [2] .

الحديث هنا صريح فى أن سكوت الرسول الكريم وصمته كان لعدم وجود جواب أثناء إلقاء السؤال ، ولذلك نجد عبارة " فسكت النبى صلى الله عليه وسلم ساعة فجاءه الوحى ، وبعد أن جاءه الوحى بالسؤال وجوابه نادى : أين السائل ؟ فدلالة الصمت هنا فى انتظار الإجابة عن طريق الوحى.

---

[1] فتح البارى ٥٨٣/٨

[2] صحيح البخارى (كتاب الحج) ١٤٤/٢ وفضائل القرآن ٩٧/٦ ، ٩٨

- " عن جابر يقول : مرضت مرضا فأتانى النبى صلى الله عليه وسلم يعودنى وأبو بكر ... فقلت : يا رسول الله ، كيف أصنع فى مالى كيف أقضى فى مالى ؟ فلم يجبنى بشئ حتى نزلت آية الميراث " [1] .

لعل دلالة الصمت هنا واضحة فى جملة (فلم يجبنى بشئ) أى صمت وسكت .(حتى نزلت آية الميراث) أى ليس عنده إجابة ، ولذلك انتظر الرسول الكريم نزول الوحى ؛ ليجيب جابرا عن سؤاله .

الشفقة والحب :

قد يدل الصمت على الشفقة والحب ، وذلك ما يمكن أن نراه خلال الحديث التالى :

" عن عبد الرحمن بن أبى بكر عن أبيه قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : ألا أنبئكم بأكبر الكبائر (ثلاثا) ؟ قالوا : بلى يا رسول الله، قال: الإشراك بالله وعقوق الوالدين ، وجلس ، وكان متكئا ، فقال : ألا وقول الزور ، قال : فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت " [2] .

أعنى بالصمت هنا ما تمناه الصحابة من رسول الله فى قولهم (ليته سكت) حيث إن تمنيهم الصمت هنا يدل على شفقتهم عليه وكراهيتهم لما يزعجه ، على ما كانوا عليه من كثرة الأدب والمحبة له والشفقة عليه[3]. ولعل تمنيهم الصمت كان لشئ انفعالى لاحظوه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو ما يكشف عنه جملة (فما زال يكررها) .

---

(1) صحيح البخارى (كتاب المرض) ٤/٧

(2) المرجع نفسه (كتاب الشهادات) ١٥٢/٣ واستتابة المرتدين ٧٨/٨

(3) انظر : فتح البارى ٢٦٣/٥

الرفض :

يدل الصمت على الرفض أحيانا ، ونلاحظ ذلك من خلال الأحاديث التالية :

١ - فى حديث الإيلاء عن ابن عباس أن عمر بن الخطاب استأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم " فقال : فقلت لغلام له أسود : استأذن لعمر ، فدخل فكلم النبى صلى الله عليه وسلم ثم خرج فقال : ذكرتك له فصمت ، فانصرفت ... فجئت فذكر مثله ... " [١] .

إن الرسول الكريم هنا غاضب معتزل نساءه ، ويريد عمر بن الخطاب أن يكلمه فى ذلك الأمر ، ويذهب إلى المكان المعتزل فيه ويرسل مع الغلام رغبته فى الدخول عليه ، فيبلغ الغلام ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيصمت ، فيبلغ عمر ذلك الصمت ، فيعرف عمر دلالة الصمت وهى رفض دخوله عليه وحديثه معه ، فينصرف ويعاود الكرة ، فيتكرر الموقف نفسه ، ومفهوم الصمت هنا هو الرفض .

٢ - " عن عائشة رضى الله عنها ، أن نساء الرسول صلى الله عليه وسلم كن حزبين ، فحزب فيه عائشة وحفصة وسودة ، والحزب الآخر أم سلمة وسائر نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم . فكلمته أم سلمة بما قلن فلم يقل شيئا ... فكلمته حين دار إليها أيضا ، فلم يقل شيئا ... فكلمته فقال لها : لا تؤذينى فى عائشة فإن الوحى لم يأتنى وأنا فى ثوب امرأة إلا عائشة ... " [٢].

---

[١] صحيح البخارى (كتاب المظالم) ١٠٥/٣ والحديث ١٠٣ : ١٠٦ وكتاب النكاح ١٤٩/٦ ، ١٥٣ مع تغيير يسير فى اللفظ .

[٢] المرجع نفسه (كتاب الهبة) ١٣٢/٣ وبلفظ (فأعرض عنى) فى كتاب مناقب أصحاب النبى ٢٢١/٤

إن كلام أم سلمة للرسول الكريم ، وعدم إجابته إياهـا ، وصـمته مرتين يدل على رفضه التام لما أرادته أم سلمة ، فاللصمت هناك وظيفة ، ولكن أم سلمة كررت طلبها من النبى صلى الله عليه وسلم، ولمـا ألحـت عليه عبرّ لها عن رفضه بقوله : (لا تؤذينى فى عائشة) [١] .

٣- " عن أبى هريرة قال : قلت يا رسول الله : إنى رجل شاب وأنا اخـاف على نفسى العنت ، ولا أجد ما أتزوج به النساء ، فسكت عنى ثم قلت مثل ذلك ، فسكت عنى ، ثم قلت مثل ذلك ، فسكت عنى، ثم قلت مثـل ذلك . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : يا أبا هريرة جف القلم بما أنت لاق فاختص على ذلك أو ذر " [٢]

في هذا الحديث يسأل أبو هريرة رسول الله : هل يتزوج ؟ وهو شاب يخاف على نفسه وليس معه مال ، فيصمت رسول الله ولا يجيبه ، فيكـرر أبـو هريرة سؤاله ثلاث مرات ؛ وفي كل مرة يصمت الرسول ولا يجيبه ، وفي الرابعة يخبره أن هذا أمر مقدر ومكتوب فليفعل ما يشاء .

فالصمت إذن له دلالة رفض الكلام في هذا الموضوع ، فقد رفعـت الأقلام وجفت الصحف ، ولما ألح عليه في السؤال أجابه بالرفض . وهـذا هو ما حدث في الحديث السابق تماما حين ألحت أم سلمة على رسـول الله بالسؤال وهو يصمت ، وفي الثالثة أجابها بالرفض أيضا .

---

[١] وهذا يدل على فضل السيدة عائشة ومنزلتها العظمى عند رسول الله . انظر : فتح البارى ١٠٨/٧

[٢] صحيح البخاري(كتاب النكاح) ١١٩/٦

الرضا والقبول :

قد يدل الصمت أحيانا على الموافقة والقبول والرضا ،نجد ذلك في الحديث التالي :

" عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لا تنكح الأيم حتى تستأمر ، ولا تنكح البكر حتي تستأذن ، قالوا : يا رسول الله وكيف إذنها ؟ قال : أن تسكت " [1] .

فهنا يعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم للصمت دلالة الموافقة ، والرضا والقبول بما يعرض على البكر من أمر زواجها ، لذلك نجد هذه الدلالة صريحة فى موضع آخر ؛ فى قول السيدة عائشة ؛ " يا رسول الله إن البكر تستحى ؟ قال رضاها صمتها " [2] ، أى إن صمتها دلالة على رضاها وقبولها .

الحياء :

يدل الصمت على الحياء ، فى بعض الأحيان ، وذلك فى الحديث التالى :

" عن ابن عمر قال النبى صلى الله عليه وسلم : مثل المؤمن كمثل شجرة خضراء ، لا يسقط ورقها ولا يتحات ، فقال القوم : هى شجرة كذا ، هى شجرة كذا ، فأردت أن أقول هى النخلة ، وأنا غلام شاب فاستحييت فقال : هى النخلة " [3] .

---

[1] صحيح البخارى (كتاب النكاح) ١٣٥/٦ وكتاب الإكراه ٥٧/٨ وكتاب الحيل ٦٢،٦٣/٨

[2] المرجع نفسه (كتاب النكاح) ١٣٥/٦ وانظر اصول الفقه ١٩٩

[3] المرجع نفسه (كتاب الأدب) ١٠٠/٧ ، ١٠١ ، ١٠٦

لعل دلالة الصمت هنا مفهومة من قول ابن عمر (فاستحييت)، فهو أصغر الجالسين ، كلهم لا يعرفون الإجابة عما شبه به رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمن ، ولكنه هو يعرف ذلك ، وصمت ولم يتكلم لأنه استحيا أن يعرف وغيره كبار لم يعرفوا ، فالصمت هنا لا يدل على الجهل ، بل على الحياء من الجالسين .

المخالفة :

أقصد بالمخالفة هنا التضاد بين الشيئين ، بحيث يدل الكلام على معنى ما ، ويدل الصمت على عكسه ، في السياق نفسه ، وذلك في الحديث التالي :

" عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت " [١] .

فهنا نجد أن الكلام يشمل معانى الخير ، وعندما تنتهى هذه المعانى، فلابد من الصمت ، خوفا من احتواء الكلام بعد ذلك على عكس الكلام الأول ؛ فالصمت هنا يحمل دلالة المخالفة للكلام المذكور .

وهذه الدلالة هى التى فهمها الشافعى من آيتى التحريم [٢] .

انتهاء الكلام :

الوظيفة الطبيعية للصمت هى انتهاء الكلام الذى يحمل فكرة أو معنى ما ، وهذه الوظيفة نلاحظها فى الحديث التالى :

---

[١] المرجع نفسه (كتاب الأدب) ١٠٤/٧ وكتاب الرقاق ١٨٤/٧

[٢] وذلك فى قوله تعالى : " حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم ..." النساء ٢٤،٢٣/٤ حيث قال " إن ما سمى الله به من النساء محرما محرم ، وما سكت عنه حلال بالصمت عنه " ، الرسالة ٢٠١

" قال عبد الله بن مسعود : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم، قلت : يا رسول الله ، أى العمل أفضل ؟ قال ، الصلاة على ميقاتها ، قلت: ثم أى؟ قال : ثم بر الوالدين ، قلت : ثم أى ؟ قال الجهاد في سبيل الله فسكت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو استزدته لزادنى "[1] .

نجد هنا عبد الله بن مسعود يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أفضل الأعمال فيجيبه رسول الله ، ويكرر عبد الله سؤاله ثلاث مرات ، ويعدد له رسول الله الأعمال ، وهنا يسكت رسول الله لأن الإجابة انتهت ولا يوجد ما يدعو للكلام ، ولذلك يفهم السائل هذه الدلالة فيسكت هو أيضا ، ويزيد الأمر توضيحا بقوله : (ولو استزدته لزادنى) .

ولعل هذه الدلالة هى الأكثر شيوعا للصمت ، وهى المفهوم الظاهرى له .

---

[1] صحيح البخاري(كتاب الجهاد) ٣/...

الخاتمة

بعد هذه الدراسة في الحديث النبوي الشريف ، يمكن أن نؤكد أنه ملئ بمادة لغوية تصلح لكثير من الدراسات اللغوية ،وذلك مخالفة لعلماء اللغة القدماء الذين انتحوا جانب الشعر وما صدر عن العرب من أقوال وحكم وأمثال ، ناهيك عن القرآن الكريم .

فقد حفل الحديث النبوي بكثير من الاستخدامات اللغوية التي رأينا قليلا منها في الفصاحة ؛ سواء في تفسير القرآن أم في الاستخدام العادى اليومي للغة بما فيها من ممارسات متعددة ومختلفة .

تلك الفصاحة التي أُرجعت إلي إلهام الله تعالي له صلى الله عليه وسلم ، ونشأته في أفصح القبائل ؛ قبيلة قريش صاحبة السيادة اللغوية على غيرها من القبائل ، واسترضاعه في بني سعد .

وعرفنا كيفية فهم دلالات الأسماء الأعلام ، واقتصار كنية الرسول الكريم (أبو القاسم) عليه وحده مع أمر منه بذلك ؛ حتى لا تضيع هيبته وعظمة النبوة بين من ينادى عليه في الأسواق والشوارع .

كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغير بعض الأسماء لتغيير دلالتها ، ولذلك كان الصحابة يستشيرونه في كثير من أسماء أولادهم عند مولدهم ليبدأ بالتسمية أو يغيرها .

وقد تجنبوا التسمية باسمه الكريم (محمد) مع عدم نهيه عن ذلك، حتى إن الذين سموا باسم (محمد) في حياته صلى الله عليه وسلم يعدون على الأصابع .

وفي حديثنا عن الازدواجية أثبتنا أن الرسول الكريم كان يخاطب كلا بلهجته الخاصة ليسهل الفهم والتلقي ، ولذلك كان يرد الحديث بأكثر من لفظ تبعا للهجة السائل . ورأينا أن هناك أحاديث كثيرة غير حديث(يتعاقبون

فيكم ملائكة) تدل على وجود لهجة (أكلوني البراغيث)، ومع ذلك لم يلتفت إليها هؤلاء النحاة الذين تعرضوا لدراستها .

وأثرنا تساؤلا عن سر الإتباع في (عطشان نطشان) : لماذا جــاء بالنون في (نطشان) ؟ هل هو تأثر بالاستنطاء ؟ أم له وجه آخر ؟

ورأينا كذلك كيف عبرت الحركة سواء كانت إشــارة أم إعراضــا، والانفعال سواء كان ضحكا أم غضبا عن دلالات مختلفة لا تفهم مجردة، بل يساعد على فهمها المسرح اللغوي بما يحويه من متكلم ومخاطب وظروف الحديث بينهما .

وقد فهم الصحابة هذه الدلالات المختلفة الدالــة علــى الــرفض أو الموافقة أو الحياء أو التوضيح أو التدليل وغير ذلك .

ولذلك دوّنوها كما هي ووصفوها في رواية الأحاديث ، ومع ذلك لم يقطعوا برأي في هذه الدلالات المختلفة ، بل عبروا عما فهموه هم فقط فيما يعرف بالدلالة الظنية ، ولهم في ذلك عبارات مثل : (فيما علمنا – فعرفنا – كأنه يريد – كأنه يقول) .

ورأينا للصمت كذلك دلالات مختلفة ؛ بحيث لا يكون انتهاء للفكــرة بل هو لغة سلبية أخرى؛ لا تظهر دلالتها إلا من خلال المسرح اللغوي الذي هو دائما مختلف . ومن دلالات الصمت الموافقة والمخالفة والرضا والحياء وانتظار الوحي وعدم قطع المتحدث فيما يتكلم فيه .

ولا نعلم في تاريخ أي لغة أن هناك شخصا اعتني أصحابه بكل مــا كان ينطقه إلا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، بل بصمته وإشــاراته الجسمية ، وتبسمه وضحكه ، وغضبه أيضاً .

كما لا نعلم أحدا في تاريخ أي لغة أحاط بكثير من دقائقها ، وتكلــم بكثير من لهجاتها إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ،بحيث يمكن أن نحكم باطمئنان بأن أعظم من تكلم باللغة العربية هو محمد صلي الله عليه وسلم.

المراجع

أولا : المراجع العربية

١- الإبدال – ابن السكيت – ت : د . حسين شرف وعلى النجدى ناصف – القاهرة ١٣٩٨هـ/١٩٧٨

٢- أخبار النحويين البصريين – أبو سعيد السيرافى – ت .د. إبراهيم البنا – القاهرة ط١ ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

٣- أساس البلاغة – جار الله الزمخشرى – دار صادر – بيروت ١٩٦٥م – ١٣٨٥هـ

٤- الاستيعاب فى معرفة الأصحاب – ابن عبد البر – ت.د. طه الزينى – على هامش الإصابة لابن حجر العسقلانى .

الإصابة فى تمييز الصحابة – ابن العسقلانى – ت : د. طه الزينى – القاهرة د.ت .

٥- الأصوات اللغوية – د. إبراهيم أنيس – الأنجلو المصرية القاهرة ط٦ ١٩٨١م

٦- الأصول – دراسة ابتسمولوجية فى أصول الفكر اللغوى العربى – د. تمام حسان – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة ط ١٩٨٢

٧- أصول الدين – عبد القاهر البغدادى – بيروت ط٢ ١٩٨١

٨- أصول الفقه – محمد أبو زهرة – دار الفكر العربى – القاهرة ١٩٥٨م .

٩- أصول الفقه – الشيخ محمد الخضرى – المكتبة التجارية الكبرى – القاهرة ط٦ ١٩٦٩م

١٠- إعراب القرآن – ابو جعفر النحاس – ت.د: زهير غازى مطبعة العانى – بغداد ١٩٧٩

١١- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية – مصطفى صادق الرافعى – دار الكتاب العربى – بيروت ط٨ د.ت

١٢- إعراب الحديث النبوى – أبو البقاء العكبرى – ت . د حسين موسى الشاعر – عمان ١٩٨١

١٣- الاقتراح فى علم أصول النحو – جلال الدين السيوطى – حيدر أباد الدكن – الهند ١٢٥٩هـ

١٤- أمالى السهيلى فى النحو واللغة والحديث والفقه – أبو القاسم الأندلسى – ت: محمد إبراهيم البنا – القاهرة ١٩٧٠

١٥- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك – ابن هشام المصرى ت: محمد محيي الدين عبد الحميد – دار الجيل – بيروت ط٥ ١٩٧٩

١٦- البحر المحيط – أبو حيان الأندلسى – الرياض – السعودية – د.ت

١٧- بحوث ومقالات فى اللغة – د. رمضان عبد التواب الخانجى – القاهرة – ط١ ١٩٨٢-١٤٠٣هـ

١٨- البيان والتبيين – أبو عثمان الجاحظ – ت: عبد السلام هارون – القاهرة ط٤ – د.ت
١٩- تأويل مشكل القرآن – ابن قتيبة – ت : السيد أحمد صقر – بيروت ط٣ ١٤٠١هـ – ١٩٨١م
٢٠- تدريب الراوى فى شرح تقريب النواوى – السيوطى – ت: عبد الوهاب عبد اللطيف – القاهرة ط٢ ١٣٨٥هـ ١٩٦٦م .
٢١- التطور اللغوى : مظاهره وعلله وقوانينه – د. رمضان عبد التواب – القاهرة ١٩٨١
٢٢- تفسير الألوسى ، روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى – شهاب الدين الألوسى – بيروت لبنان – د.ت .
٢٣- تفسير القرطبى – دار الكاتب العربى – القاهرة ١٩٦٧
٢٤- جامع بيان العلم وفضله – ابن عبد البر – ت: عبد الرحمن عثمان د٢ ١٩٦٨
٢٥- الجرح والتعديل – أبو حاتم الرازى – بيروت ١٩٥٢م
٢٦- جمهرة أنساب العرب – ابن حزم الأندلسى –ت: لجنة من العلماء – دار المراجع العلمية – بيروت ط١ ١٩٨٢م
٢٧- جمهرة اللغة – ابن دريد – ت: كرنكو – حيدر أباد الدكن الهند ١٣٤٤-١٣٥١هـ
٢٨- الحديث النبوى الشريف وأثره فى الدراسات اللغوية والنحوية – د. محمد ضارى حمادى – بيروت – ط ١٩٨٢م.
٢٩- حصول المأمول من علم الأصول – محمد صديق خان – المكتبة الكبرى – القاهرة ١٣٥٧هـ
٣٠- الحقول الدلالية فى القراءات القرآنية الصحيحة – د. أحمد عارف حجازى – دار حراء – المنيا – مصر ١٩٩٥م .
٣١- الحياة مع لغتين (الثنائية اللغوية) – د. محمد على الخولى – الرياض ١٩٨٨-١٤٠٨هـ
٣٢- الحيوان – الجاحظ – ت: عبد السلام هارون – بيروت ١٩٦٩م.
٣٣- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب – عبد القادر البغدادى ت: عبد السلام هارون – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة ط٢ ١٩٨٤م .
٣٤- الخصائص – ابن جنى – ت: محمد على النجار – دار الكتب – القاهرة – ط٢ د.ت .
٣٥- دراسة صوتية صرفية فى لهجة الواحات الخارجة – د. أحمد عارف حجازى – رسالة ماجستير مخطوطة – آداب عين شمس – القاهرة – ١٩٨٦م .
٣٦- دراسات فى علم اللغة – د. فاطمة محجوب – دار النهضة – القاهرة ١٩٧٦م .
٣٧- دراسات فى اللغة – د. إبراهيم السامرائى – بغداد ١٩٦١

٣٨- دلالة الألفاظ – د. إبراهيم أنيس – الأنجلو المصرية – القاهرة ط ١٩٨٠
٣٩- دلائل النبوة – البيهقى – ت: عبد الرحمن عثمان – دار النهضة – القاهرة ط١ ١٣٨٩هـ- ١٩٦٩م
٤٠- ديوان أمية بن أبى الصلت – ت : شولتهس – ليبزج ١٩١١
٤١- ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات – ت: محمد يوسف نجم – بيروت ١٩٥٨
٤٢- الرسالة – محمد بن إدريس الشافعى – ت: أحمد محمد شاكر القاهرة د. ت
٤٣- سر صناعة الإعراب – ابن جنى – ت: مصطفى السقا وآخرين – القاهرة ١٩٥٤م
٤٤- سنن الترمذى – الإمام الترمذى – القاهرة د.ت
٤٥- السنة قبل التدوين – محمد عجاج الخطيب – القاهرة ط١ ١٩٦٣م
٤٦- سيرة ابن هشام – السيرة النبوية – ابن هشام – ت: طه عبد الرؤوف – دار الجيل – بيروت ١٩٧٥
٤٧- سيكولوجية السعادة – مايكل أرجايل ت.د. فيصل عبد القادر – سلسلة عالم المعرفة – الكويت – عدد رقم ١٧٥ يوليو ١٩٩٣م .
٤٨- شذور الذهب فى معرفة كلام العرب – ابن هشام المصرى ت: محمد محيي الدين عبد الحميد – دار الباز – مكة المكرمة – د.ت .
٤٩- شرح الإسنوى – نهاية السول لمنهاج الوصول فى علم الأصول للقاضى البيضاوى – جمال الدين الإسنوى – القاهرة ١٩٦٩
٥٠- شرح التصريح على التوضيح – الشيخ خالد الأزهرى – القاهرة د.ت .
٥١- شرح شواهد المغنى – جلال الدين السيوطى –ت: الشنقيطى – القاهرة ١٣٢٢هـ
٥٢- شرح المفصل – ابن يعيش – مكتبة المتنبى – القاهرة د.ت
٥٣- الصاحبى – أبو الحسن أحمد بن فارس – ت: السيد أحمد صقر – مكتبة الحلبى – القاهرة ١٩٧٧ .
٥٤- صحيح البخارى – محمد بن إسماعيل البخارى – استنبول – ١٩٧٩
٥٥- ضرورة الشعر – أبو سعيد السيرافى – ت:د رمضان عبد التواب – بيروت ط١ ١٩٨٥
٥٦- الطبقات الكبرى – ابن سعد – دار صادر – بيروت – د.ت

٥٧- طبقات النحويين واللغويين - أبو بكر الزبيدى- ت محمد أبــو الفضــل إبــراهيم - دار المعارف - القاهرة ط٢ د.ت
٥٨- علم الدلالة - د. أحمد مختار عمر - دار العروبة - الكويت ط١٩٨٢م - ١٤٠٢هـ
٥٩- علم اللغة النفسى - د. عبد المجيد سيد - مطبوعات جامعة الملك سعود - الرياض ١٩٨٢
٦٠- علم النفس اللغوى - د. نوال عطية - الأنجلو المصرية - القاهرة ط١ ١٩٧٥
٦١- علوم الحديث ومصطلحه - د. صبحى الصالح - دار العلم بيروت - ط٣ ١٩٦٥
٦٢- فتح البارى بشرح صحيح البخارى - ابن حجر العسقلانى - ت: محمد فؤاد عبد الباقى وآخرين - دار المعرفة - بيروت د.ت
٦٣- فصول فى فقه العربية - د. رمضان عبد التواب - الخانجى - القاهرة ط٢ ١٩٨٠م
٦٤- فقه اللغة وسر العربية - أبو منصور الثعالبى - مطبعة الاستقامة - القاهرة - د.ت
٦٥- فى أصول النحو - سعيد الأفغانى - دمشق ط٣ ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م
٦٦- فى اللهجات العربية -د. إبراهيم أنيس - الأنجلو المصرية - القاهرة ط٦ ١٩٨٤
٦٧- القاموس المحيط - مجد الدين الفيروز أبادى - دار الفكر - بيروت ١٩٧٨م/١٣٩٨هـ
٦٨- الكافية فى النحو - ابن الحاجب - شرح الرضى الاستراباذى - دار الكتب العلمية بيروت -د.ت
٦٩- الكتاب- سيبويه - ت: عبد السلام هارون - الخانجى القاهرة ط٢ -د.ت
٧٠- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل - الزمخشــرى - عــالم المعرفة - بيروت - د. ت .
٧١- كلام العرب، من قضايا اللغة العربية - د. حسن ظاظا - دار المعارف - القاهرة ١٩٧١
٧٢- لسان العرب - تقديم عبد الله العلايلى - بيروت - د.ت
٧٣- اللغة - جوزيف فندريس - ت: الدواخلى والقصاص - القاهرة ١٩٥٠م .
٧٤- اللغة والنحو -د. إحسان عباس - القاهرة د.ت .
٧٥- مجالس ثعلب - أبو العباس أحمد بن يحيى - ت: عبد السلام هارون - دار المعــارف ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .
٧٦- مجمع اللغة العربية فى ثلاثين عاما- مجمع اللغة العربية - محمد شوقى أمين وآخرين - القاهرة - د.ت
٧٧- المختصر فى علم رجال الأثر - عبد الوهاب عبد اللطيف - دار الكتب الحديثة - بيروت ط٨ ١٩٦٦

٧٨- المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوى – د. رمضان عبد التواب – الخـانجى – القاهرة ١٩٨٣م

٧٩- المزهر فى علوم اللغة- جلال الدين السيوطى – ت: محمد أبو الفضل إبراهيم وآخرين- القاهرة ١٩٥٨م

٨٠- مسند أحمد بن حنبل – الإمام أحمد بن حنبل ت: أحمد محمد شـاكر – دار المعـارف- القاهرة ١٣٦٨-١٣٧٥

٨١- المعجم الوسيط – مجمع اللغة العربية – د. إبراهيم أنيس وآخرون – المكتبة الإسلامية استنبول – تركيا ط٢ ١٩م

٨٢- مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب – ابن هشام المصرى- ت: محمد محيي الـدين عبـد الحميد – مكتبة على صبيح – القاهرة د.ت .

٨٣- المقدمة –ابن خلدون – دار القلم – بيروت – ط٤ ١٩٨١.

٨٤- مقدمة ابن الصلاح – ابن الصلاح – ت: نور الدين عنتر – دار الفكر – دمشق ط٣ ١٩٨٤

٨٥- المنصف شرح التصريف – ابن جنى – ت: إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين – القاهرة ط١ ١٣٧٣هـ ١٩٥٤م .

٨٦- النحاة والحديث النبوى – د. حسن موسى الشاعر – القاهرة – ١٩٨٠م

٨٧- النهاية فى غريب الحديث – ابن الأثير – ت: محمود الطنـاحى – المكتبـة الأساسـية بيروت ١٩٦٣ .

٨٨- همع الهوامع شرح جمع الجوامع فى علم العربية – جلال الدين السـيوطى – ت: بـدر الدين النعسانى – دار المعرفة – بيروت –د.ت .

٨٩- الوقف والابتداء على ضوء علم اللسانيات الحديثة – د. أحمد عـارف حجـازى – دار حراء – المنيا – مصر – ١٩٩٥م .

ثانيا : المراجع الأجنبية

1- H. B. Beardsmore ; Bilingualism , Basic Principles , G. B. Clevedon Tieto , 1982 .

2- D. Crystal ; Linguistics ; Penguin Books ; U . S . A 1977 .

3- E. Hall , The hidden Dimension , Dimension , Garden City U . S . A 1969

4- R. P. M. Lehman ; Color in Usage in Irich ; Austin University ; U.S.A. 1969 .

5- W.P. L ehman ; Diachronic Semantics ; Apaper in the book of Semantics ; Theory and Application . Georgetown University, U.S.A 1976 .

6- C. Rabin ; Ancient West Arabian , London , 1951

7- P. Trudgill ; Sociolinguistics ; An Introduction ; Pen guin Books ; London ; 1981 .

الفهرس